السندباد الفقري

مجموعة قصصية

السندباد (الفقري)

مجموعة قصصية

عمرو مصطفى

الغلاف الأصلي تصميم

أ. عهد محمد

تقديم

يقولون عنه : أنه نحيل كعود الأراك لكنه قوي كالوتد ...
لوحت الشمس بشرته .. لكنه مازال يحمل وجهاً حالماً بريئاً..
لا يخلوا وجهه من مسحة من الحزن النبيل لكنه غلف ذلك كله بقناع من الحزم والقوة ...
بقية التفاصيل قد تتشابه مع بقية البحارة ..
الغديرة التي تنسدل أسفل من العمامة، واللحية القصيرة التي تحيط بالثغر الصارم الحازم، وثياب البحارة المعتادة.. فقط هو انظف قليلاً ممن حوله بحكم كونه الربان ....
فقط هو الأكثر هيبة ورهبة في قلوب البحارة ...
فقط هو السندباد .. أسطورة البحار ..

***

الشخصيات الرئيسية

الريس شهاب :

بحار عجوز يقال أنه هو من علم السندباد ركوب البحر لذا قرر الأخير الأحتفاظ به كتذكار أو تحفة أثرية تذكره بأصالة الماضي..

حميد :

رفيق درب السندباد وله هواية غريبة نوعاً ما .. وهي أنه يجيد لغة كائنات البحر وربما نكتشف يوماً أنه سمكة متنكرة في صورة بحار...

سبع البحار :

عملاق زنجي شديد البأس استطاع السندباد أن يروضه ويجعل منه خادم مطيع وحارس شخصي.

رشيد :

الطبيب الذي لا يستغني عنه في أي سفينة فما بالك بالخاتون؛ لذا فهو يقضي يومه في بتر الأطراف وفقأ العيون وجدع الأنوف إلى أخره.

التوأم تنتن وتنتون:

أبناء بحار من بحارة الخاتون مات وقد أوصى بهما السندباد.. وكما يبدو لك من أسمائهم مدى المعاناة التي يعانيها
سندباد بسببهم ...

الطاهي:
بدين كما له أن يكون.. يطبخ أشنع الطبخات.. باختصار هو إحدى وسائل التعذيب التي يستعملها السندباد مع بحارته في عرض البحر.

***

الآن وبعد التعارف السريع على السندباد وطاقمه، لنفتح سوياً سجلات ذلك البحار الفريد، ولنغص معاً في عالمه الأسطوري الخلاب.

***

القصة الأولى

سر الخاتون

اليوم ذكرى تدشين الخاتون ..
الذكرى الـ .. الـ.. لا أذكر تحديداً المهم أنها في مثل هذا اليوم ...

- هوررررراه .... هوررررراه ....

هكذا تصايح البحارة مرحبين بالخبر السعيد ....
اليوم سنتوقف عن قتل الوحوش ومواجهة المسوخ وأكلة لحوم البشر ومضايقة طائر الرخ العملاق ...
اليوم يوم أكل وشرب ولهو ...نخب الخاتون الغالية ....
و المزيد من شراب بربور البحر الفاخر.....

- مرحى .....هوررررراه ....

هكذا انهالت شلالات بربور البحر على غير العادة في بقية أيام الخاتون لأن اليوم .. يوم غير عادي .. ففي الإيام العادية يعمل البحار يوماً كاملاً مقابل بربور واحد من برابير البحر وشطيرة صرصور البحر المخلوط بصلصة بصاق البحر ...
ووقفت أتأمل في رضا طاقم الخاتون الفاتن وهو يسبح في بحر البرابير والصراصير والسنتهم تلهج بالثناء على الربان السخي سندباد ....
حميد صديقي اللدود ...والريس شهاب العجوز
ورشيد الطبيب الحاذق .. وخادمي المطيع سبع البحار ... وحتى تنتن وتنتون ثنائي الإزعاج ... الكل سعيد ...
رشفت رشفة أخيرة من شراب بورص البحر (لأني حقيقة أتقزز من شراب بربور البحر هذا) وأعلنت لهم ان الحفل حفلهم .. ثم توجهت بخطوات ثقيلة إلى قمرتي الخاصة ..

***

هنا أعرف أن البحارة يتهامسون ..
الريس سندباد دائماً مايتركنا في أوج الأحتفال بتدشين الخاتون
ويختلي بنفسه في قمرته الخاصة ...
مسح الريس شهاب فمه بكم سترته وارتعش صوته :

- السندباد يحتفظ بذكرى مؤلمة تتعلق بالخاتون .. وهو يؤثر العزلة حتى لا يراه أحد وهو.....
- شششت .....

قطع العجوز عبارته ناظراً ناحية البحار حميد الذي حدجه بنظرة نارية ليخرس ... فتنحنح قائلاً في حرج :

- يبدو انني أكثرت اليوم من شراب بربور البحر ...

ونظر تنتن إلى تنتون وقد الهب حواسهما الفضول وعقد سبع البحر ساعديه المكتنزين بالعضلات راسماً على وجهه الأبنوسي تعبيراً مهتماً وترك الطبيب رشيد فحص جرح أحد البحارة والذي بدأ جرحه ينزف شراب بربور البحر بدلاً من الدماء ... وتسمرت عشرات الأزواج من العيون
على وجه العجوز المتغضن الذي تثائب وتمطى ثم
أعلن انه بحاجة إلى النوم وتجشأ مرتين قبل أن ينصرف...
هنا صاح حميد في حبور مصطنع :

- فلنغني ما نحفظه من أغاني البحارة فاليوم لن يتكرر إلا بعد عام.

وهكذا انشغل البحارة في الغناء الذي لا يقل شناعة عن شراب

بربور البحر وعاد تنتن وتنتون يتنافسون على من يأكل أكبر عدد من سحالي البحر ... وعاد رشيد لفحص جرح البحار الذي بدأ يتعفن .. أما سبع البحر فقد ظل عاقداً ساعديه وهو ينظر واجماً إلى حيث أختفى العجوز شهاب .....

***

فتحت الصندوق الخشبي الصغير وتناولت القلادة التذكارية التي نقش عليها اسم الخاتون وضممتها إلى صدري ...
لماذا أجعلهم بالخارج يحتفلون وأنا بالداخل أتمزق من الألم والمرارة ... ؟
لماذا جعلت لهم يوم تدشين الخاتون عيداً ...؟
وهو بالنسبة لي جرحاً غائراً لا يلتئم ....
لماذا أتسلى بسكب الملح على الجرح الغائر ليشتعل الألم من جديد ....؟
لماذا ...؟
أنحنيت في حدة وافرغت ما بمعدتي في دلو مجاور ....
واعتدلت محتقن الوجه مشوش الرؤية فقط لأجد امامي ذلك الشبح العملاق الذي يقف على باب القمرة ...
- هل سيدي مريض ..؟
- أنا بخير ...لماذا تركت الحفل يا سبع البحار ....؟
اطرق سبع البحار برأسه إلى الأرض واجماً وهو يقول :
- الحفل لا يصير حفلاً بدون سيدي ....

قلت ويدي ترتجف وهى تعتصر القلادة :

- عد يا سبع البحار .. أنه افضل بدوني ...

وضممت القلادة إلى صدري مردفاً في إنهاك :

- وأنا أفضل بدونه .....

للحظات ظل سبع البحار جامداً في مكانه .. كنت اعرف أنه يتألم لحالي .. لكن حاجتي للعزلة كانت اقوى من حاجتي لشفقة سبع البحار ... واستدار العملاق الأسود ليغادر لكنه توقف فجاة وقرر أن يسأل السؤال الملح :

- لكن .. ماسر حزن سيدي في يوم عيد الخاتون الغالية ...

لم يكن هناك مفر في تلك الحالة من التحلي ببعض الغلظة حتى تحسم الأمور....

- من أنت ...؟

قلتها بصوت هادر وبنبرة من لا يقبل الجدال ...

استدار ببطء .. قامته الفارعة تجعلني إلى جواره أبدو مثل فرخ صغير ينهر طائراً من طيور الرخ .. كان كعادته يطرق إلى الأرض في خضوع وحياء لا تتناسبان مع حجمه الهائل .. قال :

- أنا خادمك المطيع ...
- لست صديقي إذن ...؟
- حاشاني ان أكون ...
- إذن كيف تجاوزت كل تلك الحدود بيني وبينك ...؟
- أطلب عفوك يا سيدي ...

- غادر قمرتي وانتظر عقابي بالخارج ....

وتأملته بقلب دامي يغادر القمرة حتى غاب جسده العملاق ..

وفي ردهات عقلي المتصدعة

بدأت تدوي الكلمات ....

من أنت ....؟

كيف تجاوزت كل تلك الحدود بيني وبينك ....

من أنت ...؟

من أنت ...؟

من .....

يالا شقائي ....

لقد عادت بي الذاكرة إلى ذلك اليوم ...

الذي كان سبباً في إنقلاب حياتي رأساً على عقب ...

***

شاب يافع مفعم بالأمال والطموحات هذا هو ماكنته ....

كانت مهنتي صناعة السفن رغم كوني أكره البحر...

البحر الذي أبتلع يوماً ما والدي الريس خير الدين .. كنت أكتفي بصناعة السفن للبحارة واشاهدهم من بعيد يذهبون بها إلى حتوفهم ولا أجرؤ على الأقتراب من الشاطئ ...الغريب أنني كنت أرتعد فرقاً من مغامرة البحروفي نفس الوقت أسمح لنفسي بالتسلل إلى ذلك القصر المنيف ....

مغامرة خطورتها أضعاف أضعاف مغامرة ركوب البحر ....

أرتدي أفخر الثياب وأرجل شعري بزيت الزيتون وأحمل
باقة من أروع الورود وأتقدم بحذر.. وأقترب أكثر وأكثرمن ذلك القصر ...
قصر الخاتون .....

***

أقترب من قصرها الذي يحيط به سور ضخم كئيب المنظر ...
لكنني اخترت موضع معين بعيد عن أعين خدمها أو رجال والدها المرعبون
سور ضخم جاثم كالكابوس بيني وبينها ....
سور ضخم .. لكنني كنت مستعداً له منذ البداية ...
اخرجت من طيات ثيابي الحبل الغليظ والخطاف ...و
هووووب ..... قابضاً على الحبل بكلتا يدي وعلى باقة الورود باسناني .. بدأت أصعد.....خفة وزني والحماس الملتهب يدفعاني دفعاً إلى قمة السور .. وحينما وصلت جلست أستجمع أنفاسي المتلاحقة من فرط القلق والتوتر ....ونظرت للحبل والخطاف في إمتنان .. شكراً لكم يا أصدقائي فقط عداني بأن تظلا هنالك حتى أعود ...
مغامرة كهذه كانت من الممكن أن تكلفني حياتي ...
شاب طائش وأحمق ومفعم بالأمال هذا هو ماكنته للأسف ...
الأن يمكنني رؤية النافذة التي تطل علي منها كل مرة ...
الأن ستخرج .. حتماً ستخرج ...

كنت جالساً على ظهر السور وقد أمدتني الأشجار الطيبة الوارفة بأوراقها فحجبتني عن العيون ..
أتشمم باقة الورد التي أحملها من اجلها في شوق منتظراً إشراقة شمسها ....
وكفي تعتصر القلادة التي أهدتها لي الخاتون يوم انقذتها من أيدي اللصوص .. صحيح أنهم تكاثروا علي وكادو أن يفتكوا بي لولا أن جاء رجال أبيها وأنقذوني !!..
لكنها أعتبرتني منقذها الوحيد
أنا السندباد صانع السفن المتواضع منقذ الخاتون العظيمة....
ومن يومها صرت مجنون الخاتون....
أتي كل مرة إلى قصرها فالتمس منها نظرة تطل بها
علي من شرفتها الخاصة تكون بمثابة أكسير الحياة الذي يبقيني حياً حتى أعود إليها من جديد...
وها قد جئت .. وها أنا ذا أنتظر ....
هنا هبت رياح عطرة لفحت وجهي فأجفلت تجاه الشرفة وقلبي يخفق بين أضلعي ....و.....
رأيتها هنالك تطل برأسها من شرفتها.....
فتتفجر الينابيع وتفيض فتغرق بفيضها العذب السهول والوديان...
رأيتها تتشمم النسيم العليل .....
فتميد الأغصان وتشدو الطيور بأرق الألحان .....
رأيتها تبتسم .....

فتتفتح الأزهار وتورق الأشجار وتذوب الثلوج التي تغطي الأكام ...
ألوح لها بباقة الورود ..فيتورد وجهها خجلاً ...
فلا أملك إلا أن ألقي بباقة الورود تجاه شرفتها ...
وانتظر حتى تومئ برأسها علامة الإمتنان ..
وأظل جامداً تائهاً لثوان .....
قبل أن أفيق وأقرر أخيراً أنه قد حان وقت الرحيل .....

***

وحينما هبطت في ذلك اليوم من فوق السور....
والتفت لأعود أدراجي .....
وجدت أمامي جارية من جواري الخاتون تنظر إلى وعلى وجهها علامة الخطر ..
للحظات هرب الدم من عروقي ..وقررت أن أدعي العته من فوري .. قليل من العته قد ينقذ حياتك أحياناً ...
هنا قالت لي مهدئة وقد لاحظت وجهي الممتقع :

- لا تخف يا سندباد ...لقد أتيتك سراً بأمر من الخاتون شخصياً..

ابتلعت ريقي في صعوبة قائلاً :

- بأمر من الخاتون شخصياً ..هذا مخيف في حد ذاته ...

قالت وهي تبتسم في غموض :

- وهل مقابلة الخاتون شئ مخيف ...

هززت رأسي في عنف مرتين كي أستوعب ما تقول فوجدتها تشير إلى ماوراء السور قائلة في دلال :

- الخاتون ترغب في مقابلتك شخصياً يا سندباد ...
فهل تسمح .....

***

للحظات تحولت إلى صورة مجسدة للعته والبله ولابد أن مظهري كان مثيراً للسخرية إلى جانب الشفقة طبعاً، لأن الجارية الحسناء وضعت كفها على فمها لتكتم ضحكة رقيعة لو كتب لها الانفلات .. من يدري .. ربما أنتهى بي المطاف معلقاً على الباب الذي دخلت منه ..
الخاتون تريد لقائي !! لم نتحدث عن قرب منذ ذلك اليوم الذي نجيتها فيه من اللصوص .. ياإلهي الذي في السماء ... لقد حانت اللحظة الحاسمة كي أصارحها بمشاعري نحوها ..لقد حان الوقت يا سندباد لتجني ثمرة تعبك وصبرك على تسلق الأسوار و....

- سندباد لن نقضي النهار كله ههنا والخاتون تنتظر ...

انتزعتني عبارتها من أفكاري الحالمة فقبضت على يدها قائلاً في أنفعال :

- أين سنتقابل ..؟ في حجرتها ..
- تأدب .. ستلقاك في حديقة القصر .. هناك باب أمن يوصل إلى الحديقة بعيداً عن أعين الخدم والحراس ...

ياإلهي الذي في السماء ..الخاتون تؤمن لي طريق الوصول إليها ..أنها تريدك وبشدة يا سندباد .. كنت انطلق خلف الجارية وأنا أراجع في ذهني بعض الجمل الشاعرية التي سوف ألقيها

على مسامع الخاتون فتنهار من فورها وتصارحني بـ.....

- سندباد ..أين أنت ذاهب يا أحمق ..؟!

التفت إلى مصدر الصوت ..كانت الجارية تقف ورائي مكشرة عن أنيابها فعلمت أنني تجاوزتها وسرت في اتجاه أخر ..

أشارت لي بكفها في حدة بمعنى اتبعني فقط من فضلك ..

- عفواً فلدي مشكلة في ضبط الأتجاهات...
- كدت أن تصير في مشكلة مع حراس القصر يا أبله ..

كان هناك باب بالفعل دلفنا منه ولم يعترضنا أحد من الحرس أو الخدم ...

الحقيقة أنني بدأت اتشكك في وجودهم أصلاً ..المهم اننا صرنا داخل الحديقة..

فالتفت فلم أجد الجارية إلى جواري فارتعدت فرائصي ..هل هو فخ أم .... هنا لمحتها ....

كانت تنحني في وقار ملتقطة وردة من بين الورود التي ألقيتها إليها منذ قليل

واعتدلت في خفة وهى تتشمم الوردة وتنظر إلى مبتسمة..كانت هي الخاتون

تمشي على الأرض ...

حاولت أن اقترب في بطء من الشمس المشرقة أمامي وأنا أتحاشى لفح حرارتها ..بيد مرتجفة اشرت إلى الوردة التي تتشممها والتي كانت

بيدي أتشممها منذ قليل ..قلت :

- هل ..هل أعجبك ...؟

ألقت الوردة جانباً في لا مبالاة وهي تقترب مني قائلة :

- جداً.....

نظرت في ارتباك إلى الوردة الملقاة .. الحقيقة هذه أغرب طريقة للتعبير عن الأعجاب بالورود .. لعل هذا عرف سائد عند هؤلاءالأعيان لابأس .. غداً سأتعرف على الكثير والكثير من عاداتهم .....

كانت قد صارت على بعد ذراعين مني فاغمضت عيني وقد أذاها الوهج المشع من اتون الجمال المجسد امامي ..

عربة أبوللو التي تنثر الضياء في الأرض تجسدت أمامي في صورة الخاتون ...

- وماذا بعد ...؟

فتحت عيني اليسرى لأبصرها قائلاً في براءة :

- بعد ماذا يا مولاتي ..؟

لمحت نظرة عاتبة في عينيها فعدت أغمض عيني مرة أخرى واكتفيت بسماع صوتها الرقراق :

- كل هذا العناء الذي تتكبده من أجلي ..حملك للزهور وتسلقك الأسوار لن اسمح لك أن تعرض حياتك للخطر يا من انقذت يوما ما حياتي ..

فتحت كلتا عيناي على اتساعهما صائحاً :

- هل تخافين على حياتي حقاً ..؟

- ششت ....صوتك يا ابله....قطعاً يا سندباد انت بالنسبة لي لست

كأي شخص أخر ...
ياإلهي الذي في السماء ..لو كان هذا حلماً فسوف أموت كمداً لو أستيقظت منه الأن ..قلت لها وأنا أحاول أن أبتلع ريقاً لا وجود له :

- هذا ليس حلماً ..؟ كل ما أسمعه حقيقي...؟
- بالطبع .. أنت لا تعرف مالذي تمثله لي ..لابد ان تحسم أمرك معي الأن.. لن تظل هكذا طوال عمرك تلاقيني من وراء الأسوار ..
- ممكن نلتقي في قبو القصر لو كان يتسع للـ.....

هنا قاطعتني في حنق :

- سندباد ..

ثم تهدج صوتها فجاة مكملة :
ـ ألم تفهم بعد يا أحمق ...؟
يالاحماقتي ..الأن أفهم ..الأن أفهم ...أقتربت منها وانا أتردد في إمساك يديها البلوريتين خشية أن تتحطم بين أناملي وتتحول إلى شظايا و فتات ..
الأن أتكلم .. الأن أقولها بصوت ملتهب ملتاع ملتـ.....
حقيقة لا أجد الأن لفظاً أخر يسعفني على نفس المنوال .. المهم أنني قلتها اخيراً :

- هل تقبلين الزواج مني أيتها الخاتون ؟

***

أنت...
من أنت ..؟
صانع السفن !! يريد الزواج من الخاتون ....!!
أنت ...
من انت ...؟
لقد تجاوزت كل الحدود ...
أنت ...
مسكين أنت ....
أنت ...
أمجنون أنت ...
كان لابد لي أن أعرف هذا
كان لابد لي أن امنعك من جنونك منذ البداية ...
كنت أشعر بقدماي تغوصان في الأرض العشبية ..وأنني أتضائل ..أتضائل ..وهي تتعاظم وتتعاظم .. وتزداد قامتها طولاً وتزداد كلماتها قسوة ..ترى هل جننت فعلاً ... وفي لحظة ... أدركت أنني كنت جاثياً أمامها وأرفع طرفي إليها في عليائها لهذا شعرت أنها إزدادت طولاً ..كنت مصدوماً .. وكان سيل الكلام مازال ينهمر ...

- أنت لم تفهم يا أحمق .. انت كنت سبباً في إنقاذ حياتي لذا شعرت نحوك بالإمتنان وأن جميلك لا يقدر بمال ..لكنني فوجئت

بك تجن وتتسلق أسواري وتلقي إلي بالورود .. كنت أخشى عليك من الحراس
والخدم لو لمحك أحدهم لقطعت رأسك وزين بها أحد أبواب القصر
لهذا طلبت مقابلتك كي أطلب منك ألا تكرر فعلتك ثانية .. حرصاً على حياتك .. لكنك يا مسكين ذهبت بعيداً جداً ..وأردت ان تلمس الشمس
براحتيك ..
الأن أحترق بنيرانك أيتها الشمس ..ومن أعماقي أصرخ : أريد ظلاً وماء ..ظلاً وماء ...
كانت تتصارع بداخلي الأفكار .. هل رحت ضحية لحماقاتي .. أم رحت
ضحية لشرنقة الغدر ....
.. أنا الفراشة الحمقاء التي تنجذب لجذوة من لهب تحسبها ضياء ..فتهوي محترقة أجنحتها صرعى..... لسراب ....
دسست يدي في جيبي وأخرجت القلادة ..التي كانت مكافأة لي ليس إلا ..كان من الممكن أن تكون صرة من الدنانير تدس في كفي وينتهى الموضوع ...لكن لا ...
رفعت القلادة إليها وانا اتحاشي النظر تجاهها
كنت أنظر إلى وردة مسكينة ملقاة هنالك ..ألقتها يد بلورية ..

- تلك القلادة .. لم أعد أستحقها الأن ...
- أعرف أنك لا تستحقها .. لكن أحتفظ بها حتى تذكرك بهذا اليوم

أنظر إليها يا سندباد كلما اختليت بنفسك ..ستذكرك بحقيقتك يا صانع السفن ..وليكن هذا درساً قاسياً ربما يكون سبباً في قلب حياتك رأساً على عقب.

أعتصرت القلادة وانا أضمها إلى صدرى ..ورفعت طرفي إليها شاحباً كالأموات ..وقلت في سخرية مريرة :

- أعدك انني سأحاول ألا أبيعها لأول صائغ يقابلني وسأظل اتذكرك دائماً أيتها الخاتون الغالية ....
- مرجانة .....

هكذا صاحت في حدة فخرجت الجارية الشمطاء من وراء إحدى الأشجار كان يبدو عليها الإستمتاع ..الأن افهم سر ابتسامتها الغامضة ..قلت لها من بين أسناني :

- ظهرت يا بومة .....

ابتسمت لي في مقت قبل أن تنحني للخاتون قائلة :

- مولاتي ...
- أصحبي صانع السفن إلى الخارج حتى لا يقع في أيدي من لا يرحم ...

قلت في إحباط وأنا اجول ببصري في المكان :

- حقيقة كنت أود أن أرى واحداً من هؤلاء الذين لا يرحمون أخشى ان يكون قد حدث لهم مكروه .....

أشارت الخاتون إلى الجارية بمعنى أن وقتنا قد أنتهى ..ولم تنسى أن تبتسم لي في رقة قبل أن تستدير عائدة إلى القصر..!!

وظللت أراقبها وهى تذوب داخل ردهات القصر ..لعلها تكون المرة الأخيرة ....

أشارت لي الجارية دميمة الوجه كي أتبعها فهممت أن أتبعها لكنني توقفت فجأة وقد عرض لي خاطر غريب ..فاستوقفت الجارية مستفهما إياها:

- باذنجانة ..أأ.. أقصد مرجانة ..ممكن سؤال عارض ...؟

هزت رأسها في ملل بمعنى : أسأل ..فقلت لها في شرود :

- هل الأخ الزميل على بابا يعلم أنك تعملين ههنا .....؟

.....

وفي لحظة وجدت نفسي خارج أسوار القصر أمشي متثاقل الخطوات لا أرى شيئاً تقريباً ..حقيقة لن أندهش لوكنت أصبت بالعمى ..

وحينما أدركت انني أبتعدت عن القصر بالقدر الكافي .....

ردد السهل المنبسط صرختي.....

طويلة ..مدوية .. ملتاعة ...

***

الموج لا يكف عن لطم الصخرة التي وقفت عليها شارداً ..

لم يعد للحياة معنى أو قيمة أو حتى مذاق .. أشعر بخواء ..

لا حاضر ولا مستقبل فقط ماضي أسود كئيب ..

عجلة الزمن توقفت بالنسبة إليك .. ساعتها تبدأ تفكر في الشئ الغامض الكامن وراء الحياة ..الشئ الذي نخشاه جميعاً ونفر منه في أوقات .. وفي أوقات أخرى يغريك

ويجذبك إليه كي تجربه ..
وفي لحظة...تجد نفسك قد تخلصت من رهاب البحر ..
أنها لحظة واحدة لكنها تكفيك كي .....
أليس الموت رائعاً .....؟

***

واقفاً على حافة الصخرة الصماء أتأمل أمواج البحر المتلاطمة
أوقن أن الموت ليس مجرد قرار نتخذه في لحظة يأس ...
ليس مجرد إخفاقة رأس وينتهي عذابك ..
والحاجز الديني يقف حائلاً بينك وبين رغبة الموت النابعة من وحي الشيطان ....
هنا رأيت أبشع كوابيسي يتحقق ... رأيت البحر الذي وددت أن أقفز إليه منذ لحظات يخرج إلي بنفسه..جبل من ماء يرتفع لعنان السماء ويستعد ليهوي على الصخرة التي أقف عليها ....
كنت فاغراً فمي في بلاهة وعاجزاً عن الحركة حينما غمرت الموجة العاتية عالمي كله ... ولم أعد أرى شيئاً ..
وللحظات شعرت انني أنتقلت للبرزخ .. وحينما انقشعت الموجة كنت منطرحاً على الصخرة الصلدة مبلبلاً ومبتلاً ..
أسعل فيخرج الماء المالح من فمي وأنفي ..
وحينما بدأت أستعيد توازني وأعرف من أنا وماذا حدث لي أنتفضت واقفاً كالملسوع وأنا أرمق البحر في رعب ..ياإلهي مالذي أتي بي ههنا ..إنه البحر يا ابله ..البحر الذي ابتلع أباك

يوماً ما ..أبتعد ..أبتعد يا أحمق ..
كانت نوبة عاتية من نوبات رهاب البحر تجتاحني ...
وكنت أتراجع بظهري في عنف وأنا موشك على فقدان الوعي
أنفاسي تتلاحق وصدري يعلو ويهبط و... هنا ارتطم ظهري
بجسم ما وسمعت من يئن خلفي ففقزت مترين للأمام في لوعة
ثم أستدرت في حدة لأرى الـ.....

- أحترس أيها الشاب ...
- عفواً يا أبت ....

كان عجوزاً أشيب اللحية والحاجبين ويرتدي ثياب الصيد
ويحمل صنارة وجراب من الشبك ويتأملني في تشكك ...

- هل أنت من هواة السباحة بالملابس الكاملة أيها الشاب
مما كنت تفر مذعوراً هكذا..؟

نظرت إلي ثيابي المبتلة في حرج ثم إلى العجوز قائلاً في
ارتباك محاولاً إنهاء الحوار سريعاً :

- أنها جنية البحر يا أبت .. دعتني وكادت أن تغرقني لكنني نجوت
والحمد لله ..

قلتها ثم أستدرت في سرعة عائداً من حيث أتيت فسمعته يصيح
من خلفي:

- أنني أصطاد هنا منذ عشر سنوات ولم أرى يوماً ما أية جنية ...

توقفت مفكراً ثم استدرت إليه قائلاً :

- يبدو انها تفضل الشباب ..جرب أن تصبغ .. فستخرج لك الجنية

من فورها ..
ابتسم لي مجاملاً ثم رأيته يطيل النظر إلي متفحصاً فبدأت أتوتر كان كمن يستعيد ذكرى قد مضت :

- تبدو لي مألوفاً أيها الشاب ..ألم نتقابل من قبل ...؟
- بلى يا أبت ...أنا الشاب الذي صدمك منذ قليل ....

لم يبتسم هذه المرة بل برقت عيناه كمن تذكر فجأة :

- نعم تذكرت ....
- الحمد لله ...

قلتها ثم استدرت كي أنصرف بسرعة من أمام ذلك العجوز الفضولي وسمعته من خلفي يسترسل في حماس:

ـ إنك تذكرني بأحد البحارة العظام ..كنت أعمل في خدمته لكنه مات رحمه الله ومن يومها تركت ركوب البحر وقررت أن أصير مجرد صياد و...

قاطعته وأنا استدير إليه في حدة :

- كان اسمه خير الدين ..؟

لمحت دهشة في عينيه وهو يقول :

- هل تعرفه ؟!! ..لحظة إن الشبه بينكما مريب ..و..

ثم قطع عبارته ليصرخ فجأة :

- أنت سندباد ابن الريس خير الدين ...
- هل تعرف اسمي ..؟

هنا وثب ناحيتي فأجفلت في رعب لكنه أحتضنني في

حرارة وهو يصيح :

- بالطبع أعرفك ..لكنك كنت صغيراً جداً ..ألا تذكر عمك شهاب ..؟

قلت في حرارة مصطنعة وأنا أتخلص من ذراعية قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة :

- حقاً أنت عم شهاب ؟! ...
- هل تذكرتني الأن ..؟
- لا ..أنني أتسائل فقط ...

لكمني في كتفي مداعباً وهو يقول :

- لقد ورثت روح الدعابة من أبيك رحمه الله..

صحت وأنا أمسك كتفي في ألم..ثم نظرت إليه غل :

- الحقيقة أنا تشرفت بلقائك..وإن شاء الله سيكون لنا لقاءات أخرى أما الأن فـ.....

هنا قاطعني بلهجة لا تقبل النقاش :

- مستحيل أن اتركك.. أنت مبتل تماماً .. لابد أن تأتي معي إلى كوخي الصغير ..

وأشار قريباً وهو يكمل في حماس :

- إنه قريب من هنا .. هيا قبل أن تتصلب أطرافك ..

كان لقاءً حميمياً بيني وبين المدفأة التي في كوخ العجوز شهاب وقد أستبدلت ثيابي المبتلة بقميص مهلهل من قمصانه..فبدا مظهري كالمعاتيه .. سألته وأنا أنظر للقميص في تحسر :

- هل هذا قميص فرحك يا عم شهاب ..؟

ناولني صحن به شئ يؤكل وهو يجيب مبتسماً :

- أنا لم أتزوج أبداً يا فتى ...

قبضت حفنة من الطعام الذي لا ادري كنهه قائلاً :

- بحار لا يتزوج .. هذا غريب ..

قلتها ثم دسست حفنة الطعام في فمي وبدأت ألوكها و.. فجأة تصلبت وتوقفت عن المضغ ثم لفظت ما أكلته في الصحن متقززاً ..

نظر لي العجوز متشككاً .. ثم تناول مني الصحن وذاق منه حفنة ثم هز رأسه في تفهم :

- لقد تعفن .. لقد طهوته منذ أربعة أيام فقط .. أم لعلها ستة ...تباً إن ذاكرتي لم تعد كما كانت ...يالا الخسارة كنت أريدك أن تجربه طازجاً .. أنه مصنوع من ديدان البحر ...

حاولت أن أقاوم شعوري بالغثيان وأنا أقول له مجاملاً :

- لا عليك .. أنا لا أحتاج لطعام حقيقة ...

هنا أشرق وجهه قائلاً :

- إذن لتشرب شيئاً ..

وقبل أن أعترض وجدت كوباً به سائل مريب في يدي فنظرت إليه في قلق فأشار لي مشجعاً بمعنى أشرب وستدعو لي ..

قربت الكوب إلى فمي ورشفت منه رشفة وتذوقتها في حذر كانت لا بأس بها فهززت رأسي في رضا :

- إنه جيد ..ما أسم هذا الشراب

قال في فخر :

- هذا شراب البحارة المخضرمين .. بربور البحر .. سمعت عنه...؟ سندباد لماذا أصفر وجهك هكذا ..أنت لست على مايرام ..يبدو أنك أصبت بالبرد يا بني ..

***

كانت تلك بداية علاقتي الوطيدة بالريس شهاب .. وجدت فيه شيئاً من رائحة والدي .. كنت اتمنى أن أجلس مع شخص مثله عارك الحياة لأبث له همومي وأحزاني بالأضافة إلى سماع حكايات أبي الشيقة مع البحر .. لقد عرف عني الكثير والكثير وعرفت منه الكثير والكثير .. وقد صدم حين عرف قصتي مع الخاتون ..وعاب علي تسلق الأسوار وخلافه وأن هذا لا يليق بمن كان أبوه الريس خير الدين مثال التدين والأخلاق النبيلة حتى شعرت بالخجل من نفسي ومن تصرفاتي الطائشة ولما لمس مني الندم أخذ يسري عني ويخبرني أن البحارة يقابلون خلال رحلاتهم جميع أشكال وأصناف النساء والخاتون ليست أخر النساء ...قلت له في بساطة:

ـ كل هذا جيد.. لكنني لست بحاراً أيها الشهاب ..

هنا صارحني بما كان يحلم به والدي .. وهو أن يصير ولده الوحيد يوماً ما بحاراً لا يشق له غبار .. أسطورة يتحاكى بها الناس على مر العصور ..

لقد سار حلم والدي مشرقاً وسرت مغرباً .. لابد أنه الأن يلعن

اليوم الذي أنجبني فيه ويتمنى لو يعود من البرزخ فقط ليبصق في وجهي ويرجع ثانية..... ياللعار ...
هنا قال العجوز وهو يبصق في النار التي في المدفأة :

- يمكننا أن نتدارك الأمر .. ونحقق حلم والدك ...
- وكيف أتغلب على رهاب البحر ...؟
- دع هذا لعمك الشهاب .. فقط نحتاج إلى سفينة ....

كان هذا هو الشئ الوحيد الذي أجيده .. لذا بدأت جدياً في التنفيذ .. أيام طويلة من العمل المضني في جمع الأخشاب وتوفير الخامات والعمالة المطلوبة لتنفيذ ذلك الحلم .... سفينتي الموعودة والتي سيتحدد بها مستقبلي مع البحر .. وكان العجوز شهاب يبذل جهداً مضاعفاً كي يقنعني بركوب البحر.. وفي النهاية أضطر أن يجمع لي خمسة من البحارة الضخام حملوني مثل الجوال وأنا أوزع فيهم ركلاتي ولكماتي ولما تمكنوا من تقييد حركتي أستعضت عن ذلك بالسباب ... وطرحت طرحاً في أحد القوارب وبدأ البحارة يجدفون وبدأ القارب يبتعد عن الشاطئ ... كانت لحظات صراخ وعويل ونحيب ..وسباب ...ألخ كانت لحظات صعبة ومريرة .

***

كان حلمي يقترب من نهايتة .. قمت ببيع منزلي لأكمل صناعة السفينة ....

كان الشهاب يقول أن البحار لابد له من دار يعود إليها ..
لكنني كنت قد فقدت كل شئ يربطني باليابسة ...
كما ان والدي لم يعد من البحر كما يزعم العجوز النصاب..
فهل أعود أنا.....
ووقفت أتأمل هيكل السفينة التي صارت رفيقة دربي فيما بعد سينحصر عالمي في تلك السفينة .. عالم صغير يطفو على سطح الماء وهذا العالم ملك لي ... هنا شعرت بقبضة قوية توضع على كتفي وسمعت صوتاً مألوفاً من خلفي :

- فيما شرودك يا سندباد ...؟

تمزقت تأملاتي في كل صوب والتفت لأرى من المزعج الأتي .. ساعتها لم أتمالك نفسي من الفرحة ...

- حميد!! ...أية رياح عفنة ألقت بك ...؟

وأمام الهيكل الضخم تعانقنا أنا وصديقي الحميم حميد ..
لقد عاد من رحلة بحرية مع والده الريس علي .. كان مشدوهاً لا يكاد يصدق أنني قررت ركوب البحر وأبدى إعجابه وفرحه بذلك بالرغم من كم الأسئلة المحيرة التي يود أن أجيبه عليها ..
صاح وهو يلكم ذراعي مداعباً :

- تغيرت كثيراً في الفترة التي تركتك فيها ..ما السر ياترى ..؟

أبتسمت بركن فمي قائلاً :

- قصة طويلة .. سأحكيها لك فيما بعد ..

هنا سألني السؤال الذي كنت أخشاه :

- ماذا فعلت مع الخاتون ..؟

هذه هى الضريبة الفادحة للصداقة .. صديقك يعرف أكثر مما ينبغي وحينما تقرر أنك نسيت يعود ليذكرك بكل فظاظة ...

نظرت إلى الأفق في شرود قائلاً :

- أنت قلت أنني تغيرت .. وأنا أظن أنني نضجت ..فلم أعد أفكر إلا بشئ واحد .. تلك السفينة التي تراها .. هي كل شئ بالنسبة لي..

نظر حميد إلي في شك .. ثم نظر إلى هيكل السفينة نظرة فاحصة ثم التفت إلي فجأة قائلاً :

- هل علمت من الذي جاء معنا على ظهر سفينة والدي ؟

قلت في سخرية:

- من.. الخليفة.. ؟
- لا ..أنه الأمير جعفر ..ابن عم الخاتون ...

قالها بلهجة خاصة وهو يتفرس في ملامحي ليرى مدى تأثري...

عقدت ساعدي أمام صدري ويممت وجهي ناحية البحر قائلاً :

- يبدو أنه دفع كثيراً جداً لوالدك ..
- سندباد أنت لا تفهم .. الأمير جعفر جاء لإتمام زواجه من إبنة عمه الخاتون سيتم الزواج بقصره المنيف في وسط المدينة....

لماذا تعود الأن يا وجه البومة لتغرس خنجراً في صدري..

ليتك لم تعد ..

نظرت إليه وأنا أشعر بكل خلجة من خلجاتي تنتفض :

- أنت الذي لا يفهم .. أنا لم أعد أفكر إلا في تلك السفينة

قال في خبث مداعباً :

- يبدو أنك فشلت معها يا صديقي ...هه..؟
- لن أرد عليك ..

وتركته وتوجهت ناحية الهيكل وتناولت قدوماً وبدأت أهوي به في غل ..هذا المسمار لم يدق جيداً ..هه..هه .. وهذا ايضاً ..

- سندباد لا تغضب مني يا صديقي .. بل أنا سعيد انك تخلصت من جنونك وكنت فقط أختبرك ...

توقفت عن الدق والتفت إليه بوجه أحمر كالطماطم صائحاً :

- وهل نجحت في إختبارك اللعين ..؟
- بالتأكيد هذا هو السندباد الذي أعرفه ...

وصمت هنيهة قبل ان يشير إلى السفينة قائلاً في انبهار :

- ستكون سفينة رائعة ..
- بلى ....
- أي أسم ستطلقه عليها ..؟

قلت في شمم:

- الخاتون ....

هنا اطبقت فمي وانا أحدج حميد بنظرة جانبية ..كان ينظر إلي في حدة رافعاً حاجبه الأيمن.. فقلت له في براءة وأنا أضم اناملي كمن يتحسس ثوباً من حرير :

- الأسم فيه لمسة شاعرية لا تنكر ...أليس كذلك ..؟

***

كانت الأيام تترى ..وجاء يوم تدشين الخاتون ....
لم تعد أمواج البحر تقلقني .. لقد قال لي الشهاب مرة
حاول أن تصادق الأمواج وتفهم لغتها وتسمع مناجاتها ..
وكنت أعتقد أنه عجوزاً مخرفاً لا أكثر ..
لكنني مع الوقت أدركت مدى صدق عبارته ...
هل جربت مرة أن تعطي أذنك لموج البحر وتدعه يلقي
إليك بأسراره ...؟ هل جربت إحساس من عاد إلى دياره
بعد غياب سنين طوال ليكتشف أنه
ينتمي إلى تلك الديار ولا شئ سواها ... كانت دياري
ههنا منذ الأبد ولم أعرف لي دياراً سواها .. هنا حيث
تتلاحم قبة السماء مع البحر اللجي ..في عناق سرمدي
هنا حيث تعطيك الطبيعة قبلة الحياة والأمل ...
هنا حيث تهدر الأمواج مبتهجة وتقرر أن تغني لك أغنية....

***

كان حميد هو أول أسم يضم إلى سجل سفيتني بعد الريس شهاب دون أن أعرض عليه ..أو حتى يفكر
هو في عرضي الذي لم أعرضه .. كان موجوداً معي
هنالك قبل الأزل ... وبقية الطاقم أستعان بهم الشهاب
من الحانات المكتظة بالبحارة الباحثين عن عمل ..
البحارة قذري الثياب خشني الطباع شديدي البأس ..

وعليك أن تحكم سيطرتك عليهم حتى لا ينقلبوا عليك
في عرض البحر في أي لحظة ..
عليك أن تكون حازماً صلباً كالصخر...
عليك ان تكون مرناً ذكياً عارفاً ببواطن الأمور ...
كان يوم تدشين السفينة الخاتون يوماً حافلاً .. لا ينسى ....
كان هناك مجموعة من الشيوخ ممن أنتهت صلاحيتهم
أصر الشهاب على إنضمامهم إلينا (لأنهم أصدقاء قدامى)
وكذلك كي نحقق لهم رغبة أخيرة ..وهي أن يموتوا وهم بحارة ...
لذا صممت وقتها على أن نصطحب معنا طبيباً ماهراً
وفي نفس الوقت يصلح أن يكون حانوتيا حاذقاً ..
من هنا برز لنا السيد رشيد وانضم إلى الفريق ...
كان يوم تدشين السفينة الخاتون يوماً حافلاً ...لاينسى ...
كان يوم تدشين السفينة الخاتون هو نفسه يوم زواج
الخاتون الغالية بالأميرجعفر ....
كنت أقف هنالك مستنداً على حافة سفينتي وأنا أشيع البر
بنظراتي وهو يبتعد وصخب البحارة وهدير الموج يفعم أذني ..
وقلت لنفسي كل منا معه خاتونه التي لن تفارقه فلماذا نحزن ..؟
لماذا نكتئب ..؟ لنبتسم ولنتحلى بالروح السمحة ...
ومن قلبي تمنيت للأمير جعفر أن يخسف به وبقصره الأرض
قبل أن تصل إليه الخاتون ..
لكن السؤال الحائر الذي يتردد بداخلي حيناً بعد حين

ولا اجد له إجابة ...ظل يلح علي هذه المرة ....
لماذا الأوغاد دائماً أسمهم جعفر ....؟
هل يعرف أحدكم إجابة ....؟

***

فجأة أرتجت الخاتون .. ووجدت نفسي متكوماً في قعر القمرة .. وفي لحظة تلاشت ذكريات الماضي وعدت للحاضر..
أقتحم حميد القمرة وعلى وجهه علامات الخطر ..صاح وهو يعينني على النهوض من سقطتي:

- لقد انتهى الحفل يا سندباد ..شئ ما يضرب الخاتون من أسفل القاع ..

قلت في سخرية وأنا أنفض تراباً وهمياً عن ثيابي :

- مرحى لقد عدنا لحياتنا الطبيعية ...غيروا الدفة عكس أتجاه الضربات..

هزة أخرى أكثر عنفاً هذه المرة ..أي شئ رهيب يفعل بنا هذا ؟
صحت في حزم :

- أريد منظار البحر حالاً ...

انطلق حميد لتنفيذ الأوامر على حين قمت أنا بلف حزامي الذي يحمل كافة أسلحتي ومعداتي الخفيفة حول خصري
حسناً كله تمام..و.. هزة أخرى ..تباً لك يا من بالأعماق ..
جذبت نفس عميق ثم تقدمت في أعتداد مغادراً القمرة و..
هنا لمحت سبع البحار واقفاً على باب القمرة كتمثال من الأبنوس..

- سبع البحار لماذا تقف هكذا ..؟
- أنتظر عقابك لي يا سيدي ...

هنا أرتجت السفينة فوجدتني أحتضن سبع البحار رغماً عني ..
سبع البحار لقد نسيت أمرك تماماً ..
كنت مازلت متعلقاً به حينما رفعت إليه طرفي ..كانت رأسي
عند معدته تقريباً ...أبتلعت ريقي في صعوبة ثم قلت له في أنهاك:

- لو كتب لنا عمر يا سبع البحار.. ونجونا .. ذكرني حينها كي أعاقبك!

***

القصة الثانية

الجزيرة التي ليست كذلك

الحقيقة أن القصص التي خضتها تتزاحم في رأسي كما أنني أحدثكم الأن في خضم مغامرة كابوسية لا خلاص لها فيما يبدو فذلك الكائن الذي يتشكل من الماء ويصر على إغراق الخاتون في قاع المحيط يشتت انتباهي فسامحوني لو أثر ذلك في طريقة سردي لمغامرة اليوم ...

هل أحكي لكم قصة شيطانة البحار .. أم جزيرة الأوهام ... أم ... أسمعوا ..لدي قصة سريعة تناسب الوضع الحرج الذي أمر به إنها الجزيرة التي ليست كذلك ...عنوان غريب .. لكنه يبدو مناسباً ..

حسنن لنبدأ السرد .. ولا تنسوني من دعائكم حتى أتمكن من ذلك الكائن المائي المزعج ...

وحتى أتمكن من سرد قصتي كذلك ...

***

ـ البحار لابد له من أرض يعود إليها يوماً ما ....

هكذا كانت تدوي في أذني كلمات معلمي الأول وأنا أقف عند مقدمة السفينة الخاتون أتأمل الأمواج المتلاطمة والتي تشقها السفينة شقاً ...

- البحار لابد له من أرض يعود إليها يوماً ما .....

لكنني ومنذ أيام عديدة مللت من عدها أخوض فيها عباب

البحر المحيط بحثاً عن الأرض لكن دون جدوى ...
هل أغرق الله الأرض بالمياه فماعادت هناك يابسة ..؟
ألقيت نظرة تجاه البحارة عابسي الوجوه فرأيت في
عيونهم نفس السؤال الملح الذي يدوي بأعماقي ...
أين اليابسة .....؟

***

- هل تهنا أخيراً ..؟

داعب العجوز شهاب لحيته الثلجية كأنما يبحث داخلها
عن جواب للسؤال الذي طرحه عليه رشيد طبيب السفينة
والذي وقف عاقداً ساعديه أمام صدره في غير رضا ...
أخيراً تكلم العجوز وارتعشت لحيته الثلجية :

- البحر صديقنا ..والصديق لا يضيع أصدقائه ...

كان هذا أخر رد يمكن لأعصاب رشيد أن تحتمله ..هو
يكره عبارات البحارة التي يدعون من خلالها الحكمة والعلم
ببواطن الأمور ..لذا فقد قال في عصبية :

- يبدو أننا اخترنا الصديق الخطأ ..أفعل شيئاً أيها الشهاب
فالبحارة بدأو يتذمرون والسندباد ساكن كأنما هو في صلاة ..
- نحن بحارة ..والبحار يعرف أن الصبر نصف المهارة ..والثقة في الربان تمثل النصف الأخر أنت طبيب والطبيب لا يفهم في مثل تلك الأمور ...
- أفحمتني يا رجل ....

قالها رشيد وهو يلوح بكفه في عصبية جعلت الشهاب ينكمش وقد كور قبضتيه متخذاً وضع الدفاع عن النفس لكن الطبيب قرر الأنصراف في أخر لحظة وهو يلعن في سره اليوم الذي التحق فيه بالسفينة الخاتون ..لقد أنقذ نفسه ..

فلو طالته لكمة الشهاب الخطافيةتلك لـ... طبعاً لن نكمل ترهات العجوز الذي لا يشكل خطراً ولا حتى لذبابة ... المهم أنه سرعان ما تحرك بسرعة قاصداً ذلك البحار الملهم الذي لا يكف عن مغازلة إحدى الأسماك البحرية غريبة الشكل داخل إناء زجاجي ولايبدو عليه أنه يشعر بأي أحد من حوله ..

- هل تهنا حقاً ؟

انتفض حميد وكاد الإناء أن يسقط من يده قبل ان يلتفت إلى الشهاب في حنق صائحاً :

- لماذا لا تصعد على كتفي لأسمعك بصورة أوضح..؟

ارتسمت علامات الخطر على وجه العجوز المتغضن وهو يتجاهل عبارة حميد قائلاً :

- السندباد صامت لا يكلم أحداً ..والبحارة منزعجون و...

قاطعه حميد قائلاً في حدة :

- البحارة يجب أن يثقوا في ربانهم ..والسندباد لا يضل طريقه أبداً كما عودنا ..

ازدرد الشهاب لعابه بصعوبه قبل أن يقول في قلق :

- منذ ثوان قلت كلام قريب من هذا للطبيب رشيد ..لكنني أشعر

بالقلق لأنني معلم السندباد والمعلم يفهم كيف يغلف تلميذه فشله بالصمت والعزلة والتظاهر بأن شيئاً لم يكن ....
ومال على أذن حميد مردفاً في فخر:
ـ فأنا من علمه ذلك ...
قالها العجوز ثم قرر أن ينصرف ...وبقى حميد بمفرده .. لابد أنه لم يفكر طويلاً قبل أن يضع الإناء الذي يحمل فيه سمكته المفضلة في مكان أمن بعيداً عن أيدي البحارة القاسية ويتجه رأساً نحو مقدمة السفينة حيث أقف ... كنت انتظره وأتوقع ما سيقوله لي همساً :

- هل تهنا حقاً ...؟

نظرت إليه واجماً ثم صرفت بصري تجاه الموج المتصارع وقلت في اقتضاب:

- لا
- إذن ماذا نكون ..؟

قلت له في مرارة وأنا اتحاشي النظر إليه :

- يبدو أننا ضعنا ...
- ياسلام .. ومتى سنحتفل بهذه المناسبة ؟

قالها حميد بصوت مرتفع لفت انتباه البحارة الذين اشرأبت أعناقهم في محاولة لسماع المزيد .. تباً لك يا حميد أيها الفضيحة المتحركة .. عاد حميد يخفض صوته قائلاً :

- كيف تسمح لنفسك بقول هذا .. أنت السندباد ...

- حتى السندباد يمكنه أن يضل الطريق ...

ثم أنني جذبت نفس عميق قبل أن استطرد في قوة:

- لكنه لا يفقد الأمل ...عد للبحارة وطمئنهم ..
- وكيف أطمئنهم ...
- أخبرهم أننا في طريقنا إلى جزيرة عرف الديك

عقد حاجبيه قائلاً :

- عرف الديـ... هل هناك جزيرة بهذا الأسم ..؟
- لا .... لكنه أسم مطمئن على كل حال ...
- ولو سألوني متى سنصل تحديداً ..
- قل لهم .... قل لهم .....

وصمت قليلاً بحثاً عن جواب ..وقبل أن افتح فمي ثانية أنقذتني صيحة هادرة جاءت من أعلى ...تحديداً من فوق صاري السفينة :

- الأرض .. الأرض ..

كان هذا هو سبع البحار ..كان مدهشاً أن يتسلق الصاري بحجمه الهائل حتى أنني شعرت بالشفقة على الصاري المسكين ..

ومن بين صيحات الفرح التي أطلقها البحارة بعد أن عادت الدماء تجري في وجوههم كنت اتنفس الصعداء فقد حدثت المعجزة ..

صحت بصوت جهوري :

- أين ..؟ أين ....؟

لماذا نكرر الكلام مرتين ..؟ يبدو أنها العادة ..كان سبع البحار

يشير بذراعه المكتنزة بالعضلات ناحية الشمال :

- هناك على مرمى البصر ... إنها جزيرة ...

التفت إلى البحارة صائحاً في حبور :

- استعدوا يا شباب ..بعد قليل سنرسوا على جزيرة عرف الديك ..

وتحاشيت النظر إلى حميد وانا اتجه ناحية القمرة تاركاً البحارة يقومون بدورهم ... فيما بعد علمت أن رشيد اقترب من حميد قائلا في شك :

- لايوجد هناك جزيرة باسم عرف الديك ..أنا أعرف ما أقول ..

نظر إليه حميد ملياً ثم قال بلهجة من يعرف ببواطن الأمور:

- عرف الديك هي واحدة من مجموعة جزر شهيرة جداً لكن أحداً لم يسمع عنها قط !!...

وتركه وانصرف سريعاً قبل أن ينطق رشيد ببنت شفة ..

***

كانت الجزيرة تقترب وتقترب ومعالمها تتضح شيئاً فشيئاً..

الجزيرة تبدوأرضها ملساء...

الجزيرة تبدو تضاريسها تلمع تحت أشعة الشمس ..

الجزيرة تبدو داكنة اللون ...

الجزيرة تبدو صلبة قاسية ....

الجزيرة تبدو.....

غريبة حقاً هي تلك الجزيرة ... هرشت مؤخرة رأسي في محاولة للفهم ...أي جزيرة تلك ..هنا شعرت

بقبضة حميد تنتزعني من أفكاري وسمعته يهمس في أذني بصوت مضطرب :

- سندباد ..لا ينبغي أن نهبط على تلك الجزيرة ..
- لماذا ؟
- شئ ما يهتف بداخلي ألا نفعل ..صوت حيواني يحذرني من النزول ...

تباً ..هذا ما كان ينقصنا .. رتبت على عاتقه مطمئناً وأنا أقول له من بين أسناني :

- حميد ..يا حبيبي ..أنا لن أحرم البحارة بعد كل هذا العناء من النزول إلى الجزيرة فقط لأنك تشعر بحيوان داخلك يحذرك من النزول ..

صاح في حنق :

- أنا لم أقل حيوان بداخلي هذه إهانة يارجل ..
- مهما يكن ..أنا لا اتصور أن موهبتك في فهم لغة دواب البحر قد انتقلت إلى فهم لغة اليابسة أيضاً ..
- لكن ...

قاطعته بلهجة من لا يقبل النقاش :

- لقد اصدرت الأمر .. وسأكون انا وأنت أول من يهبط عليها ...

***

إلى البحر أنزل البحارة المتحمسون القارب الذي به نستكشف جزيرتنا الغامضة .. ركاب القارب الموعود ينزلون في القارب وأحدهم يحاول أن يتملص من النزول كالأطفال والأخر يزجره

طبعاً الأول كان حميد والثاني هو محدثكم .. فجأة اهتز القارب فالتفت لأجد العملاق سبع البحار قد استقر معنا في القارب وفي عينه التمعت نظرة لا تحتاج لكلام (أنا معك) ..هو لن يتركني أهبط على
الجزيرة بدونه فهو كظلي في كل مكان أذهب إليه حتى أنني أفكر لو مت أن أوصي بدفنه معي ..هو لن يعارض على كل حال ...
ليكن يا سبع البحار
نحن بحاجة لمن يجدف لنا ..خذ مكانك ...

- سندباد خذنا معك ....

كان هذا هتاف بصوت مكرر من زوجي المتاعب تنتن وتنتون ..كانت نظرة
اللوعة الطفولية الممزوجة بالاستعطاف تطل من أعينهم ..

- الكل سيهبط يا حمقى .. فقط تحلوا بالصبر ...

قلتها ثم التفت إلى سبع البحار وأشرت له أن انطلق....
لم يحتج الأمر سوى عدة ضربات بالمجاديف التي تعتصرها قبضة سبع البحار الفولاذية وكنا نرسو على شاطئ
الجزيرة .. ولم ينسى حميد أن يهمس في توتر فتلفح كلماته أذني:

- نحن نرتكب خطئاً فاحشاً ...
- شششت ....

غريب ملمس تلك الأرض كأنك تطأ على جلد زلق..وتحاول أن تتحاشى الأنزلاق في أية لحظة ...طبعاً عن طريق التشبث بسبع

البحار الذي كان يمشى راسخاً رغم كل شئ ..وتحاول أن تتحاشى همسات حميد الملتاعة والتي تكرر للمرة الألف : لاينبغي أن نهبط على تلك الجزيرة ...

كنا الأن نصعد المرتفع فالجزيرة كلها كانت تبدو مثل الهضبة ترتفع لأعلى كلما توغلت فيها.. وبعد جهد ومشقة استطعنا أن نصل للقمة .. وأسقط في أيدينا ... جزيرة صماء ..جرداء ..هذا هو كل شئ ...

تبادلنا النظرات المنهكة ... كان حميد سعيداً رغم الإنهاك لأن معنى ذلك هو أننا سنعود أدراجنا ..

قلت من بين أسناني :

- هل سنعود للبحارة بخفي حنين ...؟

قال حميد :

- هذا أفضل من أن لا نعود ...

هنا صاح سبع البحار مشيراً إلى نقطة ما :

- هناك شبه منحدر ..ربما وجدنا بعض الماء ....

مرة أخرى يدق الأمل قلبي ..صحت في لهفة وأنا أعدو ناحية المنحدر:

- ماء عزب ..هذا كثير والله ...
- سندباد أنتظر ...

هكذا صاح حميد في جزع من ورائي ....

وليتني توقفت ..

كان الدوي صاخباً بشعاً ..ولم أفهم شيئاً في البداية ولم استوعب للحظات أنني أطير في الهواء لأعلى ..لأعلى .. ورزاز من بخار الماء

الساخن يلفحني من أسفل ..للحظات خيل إلى انني سأظل أرتفع للأبد لكن سرعان ما جاء السقوط المزري ...
ومن موضعي على الأرض ظننت للحظات أنني قد مت.. فتلك السقطة لا نجاة منها ..حتى لمحت ساقي سبع البحار وحميد بالوضع المقلوب تقترب مني وبأيديهم تتحسسني ...

- سندباد ..هل أنت بخير ...؟
- سيدي هل أصابك مكروه ....؟

أعتدلت وأنا أشعر بكل مفصل من مفاصلي يئن ويحتج ويطالب بحقه في الأنفصال ..ونظرت إليهم للحظات في عدم فهم ..

- ماذا حدث ..؟

صاح حميد :

- لا ندري ..فجأة أنفجرت الأرض من تحت قدميك بالماء ورأيناك ترتفع لأعلى بفعل الماء ثم تسقط ...

الأرض تنفجر من تحتي .. صحت وأنا لا أكاد أصدق:

- هذه معجزة ...

نظر لي حميد في حدة ..ثم صاح كمن يخاطب مخبولاً :

- أي معجزة ..لقد كدت تموت ..تلك الجزيرة مخيفة ولابد أن نغادرها .....

صحت محتداً :

ـ نغادرها ..بعد أن وجدنا مصدر للماء هل جننت ...هذه جزيرتنا

ورفعت كلتا يديا عالياً وأنا أكمل بلهجة منتصرة :

- إنها حتى لاتبدو ًمخيفة.....

هنا ارتجت الأرض... وشعرت بساعد سبع البحار تمنعني من السقوط وكنت أسعد حظاً من حميد الذي أسقطته الرجة على ظهره ...ثم هدأ كل شئ ....

للحظات تجمد المشهد ..سبع البحار يمسك ساعدي وقد باعد بين ساقيه وانا أقف جامداً اتامل حميد حيث سقط ... و ...

هنا هب حميد من سقطته كالملسوع وهو يهتف كأنما يهذي :

- يا إلهي ..تلك الجزيرة ..لابد ... يا إلهي ..
- ماذا دهاك يا أحمق ...؟

نظر لي بعينين زائغتين وحاول أن يكون جملة مفيدة :

- لابد أن نعود ..تلك الجزيرة ليست كذلك ...

قلت في عدم فهم :

- ليست ماذا ...؟
- لقد علمت مصدر الصوت الحيواني الذي يحذرنا منذ البداية إنه يصدر من ....

ولم يكمل حميد عبارته ..ولم نكن نحتاج حقيقة لأن يكملها لأن ما حدث كان يغني عن الشرح ..فالجزيرة التي هبطنا عليها بكل سذاجة لم تكن كذلك ..لأن الجزر حسب ما أعلم لا تتحرك .....

***

لابد أن المشهد كان كابوسياً من على سطح الخاتون.....

لابد أن نصف البحارة أصيبوا بالعته والنصف الأخر أصيب بالنوبات

القلبية ...
كان الشهاب يصيح بالبحارة والزبد يتطاير من شدقيه:
- تحركوا فوراً يا حمقى ....تحركواااااااااا
وبدأ يركل هذا ويلكم هذا ويدفع هذا ..كان عملياً كما لم يكن من قبل كان يعرف أن الواجب يحتم عليه التحرك بسرعة حتى وإن كان الثمن هو التضحية بربان الخاتون وصاحب عمره وخادمه المطيع ...
وجاء رشيد وهو يحمل منظاراً غريب الشكل ويتحاشى الارتطام بالبحارة الذين بدأو يفيقون من الصدمة ويتحركون لتنفيذ أوامر الشهاب..
ـ انتظر أيها الشهاب هذه ظاهرة لا تتكرر ....
قالها رشيد ثم ثبت المنظار على عينه اليمنى وبدأ يتأمل الكابوس الذي حسبناه جزيرة ..
وعبر المنظار المقرب استطاع رشيد رؤية مالم يره غيره ..وسرعان ما أطلق شهقة عارمة وهو يتراجع صائحاً :
ـ أعتقد انها فكرة حمقاء .....
أما نحن فلكم ان تتخيلوا .....
كان العملاق سبع البحار يتعلق بحافة المنحدر الذي ظننا أنه منحدر يفضي إلى الماء ..وكنت انا اتعلق بساقه القوية وكان حميد متعلقاً بساقي ونحاول جاهدين ألا ننزلق ....وكان حميد لا يكف عن الصياح والسباب ..
- نحن أتعس بحارة في تاريخ البحار ..لم نجد افضل من ظهر الحوت

الحكيم ملك المحيطات لنهبط على ظهره ....
قلت من بين أسناني وأنا أحاول التشبث أكثر بساق سبع البحار :
- أهدأ يا حميد ..نحن مازلنا على ظهره ولم نصل لفمه بعد ...
كان سبع البحار يتشبث بكل قوته بالحافة التي تبين أنها حافة فتحة التنفس
الخاصة بالحوت الحكيم لكنه وجد الفرصة ليسألني بصوت هادر :
- والأن ماالعمل ياسيدي..؟
والأن ماالعمل ..؟ كان الجسد المهول يتحرك مقترباً من الخاتون ...
كانت أقرب إلى سمكة صغيرة تحاول أن تسبح مبتعدة ..لكن دون جدوى
كنت أعلم أن الشهاب سيتخذ القرار بالتحرك ..لكنهم مهما حاولوا فمصيرهم كان محتوماً..
سيدهسهم الحوت دون حتى أن يدري أنه فعل ..
هنا التفت إلى حميد الذي غرس مخالبه في ساقي ليزيد من تشبثه
وهو لا يكف عن الولولة وصحت في غل :
- حميد ..أنت الوحيد القادر على التفاهم مع ذلك الحوت ..حاول ان تنقذنا
وتنقذ الخاتون ..
- نحن ميتون ..إنه غاضب وبشدة ..ونحن لم نستمع إلي تحذيراته ...
كان متشبثاً بساقي اليمنى لذا قررت ركله باليسرى وانا أصيح :
- كلمه يا أحمق ..أنت اخر أمل لدينا ....
وصرفت بصري تجاه الخاتون .. وخفق قلبي بين أضلعي ..

وفي لوعة همست :

ـ يا إلهي .. أحفظ الخاتون ...

***

فجأة هدأ كل شئ ....

توقف الحوت الحكيم عن الحركة وعاد إلى وضعه السابق الذي غرر بنا أما الخاتون فكانت تبتعد ..وتبتعد ..كأنما تطاردها الشياطين ...

- حميد ماذا جرى ..؟ لماذا توقف ..؟

كنا قد عدنا للوقوف بثبات على أقدامنا مرة أخرى بعد ان عاد الجسد الأسطوري إلى وضعه الصخري ....وكان حميد يلهث ويحاول أن يجيبني :

- إنه ..إنه لا ينوي شراً على ما يبدوا ...

كان العرق والجهد يعصف بنا ..والسؤال الملح ..ما هو مصيرنا الأن ؟..عاد حميد يتحسس الجلد السميك وكأنما يناشده على حين صاح سبع البحار مكوراً قبضته وهو يشير إلى حيث انطلقت الخاتون :

- الجبناء يهربون .....

قلت له وأنا أقترب من حميد في حذر :

- هذا ليس جبناً.. إنه القرار الصائب يا سبع البحار ..

ووضعت كفي على عاتق حميد وانا أسئله في قلق :

- هل أخبرك شيئاً ..؟

رفع حميد طرفه إلي وبدا على وجهه شئ من الارتياح جعلني أطمئن نوعاً ..أجاب في إنهاك :

- نحن محظوظون ..لان تلك القوة الجبارة لا تحمل لنا شراً
إنه موسم التزاوج وهو الأن يبحث عن أنثاه ..لكننا عكرنا صفو اللقاء ..
- هذا ما كان ينقصنا ..
ـ ونظرت حولي متسائلاً ـ وأين أنثاه الموعودة ...؟
نظر لي حميد بثبات قائلاً :
- إنها قريبة ...قريبة جداً ..
هنا أمتقع وجهي ..قلت بصوت مبحوح:
- قريبة جداً ..لاتقل لي أنهم سوف .....
وقطعت عبارتي وأنا أتبادل النظرات الممتقعة مع حميد ..ثم التفت إلى سبع البحار وازدرت
لعابي في صعوبة قبل أن أقول :
- أعتقد أن علينا أن نتشبث من جديد يا سبع البحار ...

***

كان الشهاب يدير الدفة ولا يكف عن الصياح والصراخ بالبحارة ..
هيا أيها الكسالى ..لقد نجحنا في الابتعاد عن الخطر ..
فيما بعد سنبكي أياماً عديدة على فقدان السندباد وحميد وسبع البحار أما الأن .. فلابد أن نهتم بنجاة الخاتون ..
كان تنتن وتنتون يتشبثون بالبحار العجوز ويبكون في حرقة ..كان فقدان السندباد بالنسبة إليهم يعني فقدان العائل ..ويشعرهم باليتم للمرة الثانية ..كان الشهاب يربت عليهم في حنو ويضمهم إلى صدره

ويحاول أن يقول لهم شيئاً :

- لا تخشوا شيئاً مازال لكم أب عجوز سيعنى بكم ..

صاح تنتن من وسط دموعه وهو يتمخط في كتف الشهاب :

- والسندباد ؟

أرسل الشهاب نظرة ذابلة إلى حيث تركوا ربانهم ثم أطلق زفرة حارة ملتهبة :

- شاء القدير أن أشهد مهلكه كما شهدت مهلك والده ..يبدو أنني شؤم على تلك العائلة ...

هنا جاء رشيد وتنحنح قليلاً مراعاة للمشهد الحزين قبل أن يقول في أدب :

- معذرة أيها الشهاب بما أنك ربان الخاتون الأن فهل لي في طرح إشكال بسيط ...

عقد العجوز حاجبيه الكثين متسائلاً فأشار رشيد خلفه مكملاً في حنق :

- إذا كنا نفر من الحوت الضخم فلماذا نتجه إليه الأن ...

ومن حافة الخاتون كان المشهد يعبر عن نفسه ...

الخاتون لم تكن تسبح فوق الماء ....كان هناك جزيرة أخرى كتلك التي حط عليها السندباد ورفاقه تحمل الخاتون وتتجه بها رأساً إلى حيث الجزيرة الأولى ...الجزيرة التي ليست كذلك ...لقد وجد الحوت الحكيم ضالته أخيراً ..

وعض الشهاب شفته السفلى وهو يضرب حافة الخاتون بقبضته قبل أن يلتفت للوجوه البائسة التي تحدق فيه غير مصدقة للهول المقبل:

- حسنن يا رجال ..يبدو أنها النهاية ...

قالها الشهاب ثم تلى قوله صوت الصليل المحبب للنفس ولمع نصل سيفه وهو يلوح به
مردفاً :

- لنجعل لحظات النهاية هى الأسوأ لهذا الوغد العملاق ...

وتحت أشعة الشمس لمعت عشرات النصال الحادة المستعدة لتمزيق الحوت إرباً..!! فقط لو يخبرنا أحدهم كيف يكون هذا ..؟
والتفت الشهاب إلى تنتن وتنتون وحاول ان يقول لهم شيئاً مشجعاً :

- لا تقلقوا يا ابنائي ..سنلحق سوياً بالسندباد في العالم الأخر ..

وكان هذا كفيلاً كي ينفجرا في البكاء أكثر ويزداد تشبثهم بساقيه... كان البحارة يطلقون صيحات قتالية مناسبة ..لكنها من ذلك النوع الذي يداري به المرء شعوره بالرعب .. وتخلص الشهاب اخيراً من كلابات تنتن وتنتون التي تحيط بساقيه ورفع سيفه عالياً وصاح في البحارة في حبور :

- لنلقن ذلك الحوت درساً يا شباب ..من سيأتيني بقطعة من كبده؟
- هوررراااه .....

***

- لقد وجد صديقنا ضالته ...

هكذا صاح حميد بلهجة منتصرة فالتفت إليه محنقاً ..كان الوغد يبدو مستمتعاً وكأننا في عرس صديق ...أشرت تجاه الحوت الثاني الذي يقترب حثيثاً قائلاً :

- هذه هي أنثاه إذن ..حقيقة لا أجد فارقاً بينهما سوى الحجم و..

وقطعت عبارتي وقد جمدتني المفاجاة .. فقد لمحت الخاتون وقد استقرت فوق ظهر الحوت الأنثى وألجمتني المفاجأة فلم أستطع التعليق ...

وسمعت سبع البحار يصيح بصوته الأبنوسي :

ـ إنها الخاتون ... لقد عاد الجبناء ...

أما حميد الوغد فقد كان يقضي أسعد ايام حياته ...

- إننا نشهد يوماً تاريخياً ... شئ لا يراه البشر في العمر أكثر من مرة..

عقدت ساعدي أمام صدري قائلاً في أنبهار مصطنع :

- حقاً ..ومتى سنزغرد للعروسين ..؟
- لا تكن قاسياً يا سندباد ...

قلت له وانا أتحاشى خنقه :

- حميد يا حبيبي ..نحن والخاتون الأن على ظهر أضخم مخلوقين في الأرض وهم على وشك التزاوج هل ترى ذلك مبشراً بالخير ..؟

فرقع بأصبعيه الإبهام والوسطى قائلاً في ثقة :

- لا تقلق ..حميد مسيطر على الموقف ...

هنا صمت أذاننا الصرخات المحمومة وصليل السيوف فرفعنا رؤوسنا لنرى المشهد الكابوسي .. البحارة الحمقى يحاولون نحر الحوت الأنثى ..وكان هذا يعنى أن الكارثة قادمة لا محالة ....

وسرعان ما ضرب الزلزال المتوقع ما تحت اقدامنا .. وحاولنا بما بقى لدينا من غريزة البقاء أن نتشبث بأي شئ ..هذا كم قميص سبع البحار أم سرواله لا يهم

المهم هو أن تتشبث بأي شئ..وصرخ حميد في لوعة وهو يحاول تهدئة الكابوس الذي تحتنا :

- سندباد ..حاول أن تمنع الحمقى من قتلنا جميعاً ....

كانوا قريبين منا بما يكفي لكي .. لكي تنطلق حنجرتي الذهبية التي أثقلتها سنون الخبرة في البحر ....

- توقفوااااااااااااااااا .....

ثلاث أو اربع مرات وفي النهاية بدأ الصخب يهدأ وتتحول صيحات القتال إلى فرح وحبور ...السندباد حي ؟!!...حي يا حمقى ...حمدا لله.. وسجد الشهاب شكراً لله وصعد تنتن وتنتون على ظهره ليتمكنوا من رؤية

أوضح قبل أن يتبادلا العناق الحار ..

لوحت لهم بذراعي وقلت في غل :

- لا يتعرض أحد للأنسة بأذى .....حميد يسيطر على الموقف ...

كان البحارة لا يفهمون شيئاً تقريباً سوى أن ساعة القتال لم تحن بعد وعليهم أن ينتظروا ...التفت إلى حميد مستفهما :

- والأن ..؟
- هذا أنبل حوت قابلته في حياتي .. لقد قرر أن يوصلنا هو وزوجة المستقبل إلى أقرب شاطئ فقد أزعجناه بما يكفي ...

قلت بدهشة :

- حقاً !! لم أتوقع أن تنتهى مأساتنا هكذا سريعاً ..
- أنت فقط تعودت على مواجهة الوحوش والمسوخ الشريرة ...

وللمرة الأولى أنحني على جلد الحوت الثخين وأربت عليه في رفق..
قلت لحميد في رقة ازعجتني :

- هل يمكنك أن تشكره نيابة عني ؟

قال حميد في إرهاق:

- الطريقة الوحيدة لشكره هو أن نتركه يوصلنا لأقرب جزيرة وبسرعة ...

***

على أقرب شاطئ نزلنا مودعين الحوت الحكيم وأنثاه ....
كانت مغامرة غير عادية لكنها تستحق أن تضم إلى سلسلة مغامراتي التي لا تنتهي ... قلت لحميد ونحن نمشي حفاة على رمال الشاطئ الذهبية :

- ترى ما هو المستفاد من تلك المغامرة ..؟

قال وهو يغمض عينيه اتقاءً لأشعة الشمس :

- ربما هناك فوائد عديدة ..على سبيل المثال لاتقرر الهبوط على أول جزيرة تصادفك إلا بعد ان تتأكد من انها ليست حوتاً غافياً ..

ابتسمت لدعابته قبل أن أقول في شرود :

- تعرف ..أنا أحسد ذلك الحوت النبيل ...على الأقل لقد وجد له شريكة
- أعرف ...

قالها ثم نظر لي في خبث مردفاً :

- ولعل هذا هو المستفاد من مغامرتك ...

هنا تسمرت فجأة وأنا أنظر أمامي ...
كانت هناك فتاة ترتدي ثياباً غريبة وتحمل جرة ...فتاة غريبة وثياب غريبة لكنها رغم ذلك كانت جميلة .. كنت انا وحميد ننظر إليها وهي لا تلاحظنا
كانت تنحني لتجمع بعض الصدف الذي يقذفه الموج للشاطئ وتضعه في جرتها
تبادلت مع حميد النظرات قبل ان أهمس :

- مارأيك ؟
- سندباد لا تتهور ...

قلت له بلهجة لائمة :

- إلى أين ذهبت؟ ...أنا فقط سأطلب منها أن تساعدنا في

- الحصول على

بعض المؤن ..
واقتربت منها بالفعل ملوحاً بكفي لالفت انتباهها :

- هاي ... هل يمكنك أن ترشدينا إلى ...

ولم أكمل عبارتي ... لان الجرة ارتطمت بوجهي وتناثر الصدف من حولي
...وحينما فتحت عيناي رأيتها تعدو هاربة وهي تصرخ ملوحة بيديها كأنما
رات شيطان .. اقترب حميد مني وهو ينفض الصدف عن عاتقي قائلاً :

- هل حصلت على المؤن اللازمة ...؟

كنت أتابع الفتاة وهي تبتعد حتى غابت بين الأشجار الكثيفة قبل أن أجيبه قائلاً :

- بلى ...سنتعشى صدفاً ..الكثير من الصدف ...

كنا قد ابتعدنا قليلاً في سيرنا عن البحارة المستلقون على الرمال يستمتعون
بأشعة الشمس .. عندها بدأنا نسمع صوت الطبول ...أجفلنا ناحية البقعة التي
اختفت عندها الفتاة والخواطر السوداء تنهش رؤوسنا ... طبول طبول .. ولا نرى أحداً .. ثم دوت الصرخات المروعة ..
وعندها رأيناهم ....
نظرت لحميد فرأيت وجهه مصفراً ..وكان يحاول أن يتسائل بصوت مبحوح :

- من ..من هؤلاء ؟

كان حلقي قد جف تماماً لكنني استطعت أن أقول شيئاً :

- هيئتهم تذكرني بـ..بـ...

كنا نعدو كالمجانين ..نعدو كما لم نعدو من قبل ...
وخلفنا .... كانت عشرات بل مئات الرماح المدببة التي علق على بعض أطرافها جماجم بشرية تعسة ..تحملها أيدي قاسية تحاول النيل منا والصرخات المفزعة من الحناجر الغاضبة تجعلك تقسم على ألا تلتفت لترى من يطاردك .....

لقد ألقى بنا الحوت النبيل على شاطئ جزيرة لكنها ليست كأي جزيرة إنها جزيرة يفضل ساكنوها أكل لحوم البشر على سبيل التجديد ...
إنهم قبيلة نمنم الشهيرة!
ومن أعماق أعماق قلبي كنت ألعن الحوت الوغد واتمنى له يوماً أسوداً مع أنسته ...
تقولون وماذا عن آكلي لحوم البشر ..؟
طبعاً لم أسمح لهم بأكلي ..كما لكم أن تتوقعوا ..فأنا لست شبحاً يروي الحكايات .. لكن على العموم ..ربما أحكي لكم تلك المغامرة يوماً ما لكن ليس الأن من فضلكم فأنا مشغول جداً بذلك الكائن الذي يتشكل من الماء ويصر على إغراقنا جميعاً ..
فهل تسمحون .....

***

القصة الثالثة

صندوق صياد

قابلته في ميناء خابور، عرفني بنفسه على أنه تاجر يدعى صياد ابن الحداد، مقيم هنا ويبحث عن بحار مؤتمن ليدفع إليه بصندوق مغلق ليوصله إلى أهله في بغداد.. وقد سره أن يكون هذا البحار هو السندباد نفسه..

قلت له بعد أن تعانقنا عناقاً حاراً قاتلاً :

ـ سأقوم بهذا بدون مقابل.

حاول أن يحلف فقلت له أن كلانا من بغداد.. هذا سبب وجيه كي لا أقبل أي مقابل.. الشهاب اتسعت عيناه وحاول أن يغمزني كي آخذ منه المال لكنني كنت مصمماً..

أشرت لسبع البحار كي يحضر الصندوق إلى الخاتون الراسية في الميناء وقبل أن أنصرف استحلفني الرجل :

ـ لا تفتح الصندوق مهما حصل حتى تسلمه إلى أهلي.

قلت له برنة غضب :

ـ ليس هذا من شيمتي..

فاعتذر لي بشدة فقبلت اعتذاره.. أعطاني عنوان بيته في بغداد ثم صافحني بحرارة لكنني أبيت إلا أن أعانقه مرة أخرى.. كنت أشتم فيه رائحة شوارع بغداد.. وتركته لينصرف قبل أفقد أعصابي و أنفجر باكياً..

قال لي حميد وهو يتأمل الصندوق والبحارة ينقلونه إلى القاع:

ـ يبدو لي أنك وثقت في هذا التاجر أكثر مما وثق هو فيك..

سألته :

ـ لا طبعاً.. تصور ما يمكن أن يحوي هذا الصندوق؟
فكر قليلاً ثم قال:
ـ أكيد ذهب وياقوت..
قلت بلهجة حالمة :
ـ أرأيت.. إنها ثقة لا يوجد مثلها في هذا الزمان يا صديقي..
ثم ملت عليه هامساً :
ـ وإنها أمانة ثقيلة كذلك لذا لن يفارق هذا الصندوق قمرتي.. معنا بحارة مستجدين قد تزوغ أعينهم على ما في هذا الصندوق.
ـ هذا أفضل فلن يجرؤ أحدهم على التسلل إلى قمرتك الخاصة..
رفعنا الهلب.. وفردنا الأشرعة وبدأت الخاتون تتمايل..
سرنا في الماء ليلة كاملة بلا مشاكل.. ثم بدأت المشاكل حينما جاء الليل وأويت إلى فراشي بعد أن ألقيت نظرة مطمئنة على الصندوق القابع تحت الفراش المتأرجح.. بدات أسمع تلك الأصوات..
***
إنه صوت يشبه صوت الفئران التي تعبث في قبو الخاتون لكنه يصدر من الصندوق.. هل أعطاني صياد صندوق لأهله محمل بالفئران..
هبطت من فوق فراشي المتأرجح وتأملت الصندوق.. ملت عليه منصتاً.. أبعدت أذني وقد اقشعرلا بدني من هذا الصوت الممجوج..
وتذكرت ما قاله لي الرجل :
ـ لا تفتح الصندوق مهما حصل حتى تسلمه إلى أهلي.
صعدت إلى الفراش وقلت لنفسي :

علي أن أهدأ.. إنه ذلك الهراء المعتاد في عرض البحر.. لا يوجد صندوق مغلق إلا وفيه ألف عفريت حبيس.. لم أقابل بعد ذلك الصندوق الذي يحترم نفسه ويكف عن تلك الأشياء الصبيانية التي تفزع البحارة ليلاً..

قلت كلاماً نحو ذلك لحميد في الصباح فقال لي بقلق :

ـ أنا لست مرتاحاً لهذا الصندوق ولا لهذا التاجر.

قلت في بشر :

ـ مرحى.. هذا يعني أننا مقبلين على مغامرة جديدة..

ـ سندباد أنا لا أمزح.. تقول الصندوق يصدر أصوات كأن هناك شيء ما يتحرك بداخله.. هذا الشيء قد يكون خطراً.. قد يغادر الصندوق و..

رتبت على عاتقه قائلاً :

ـ سيسعدني أن يحدث ذلك جداً.. لأنني لن أجسر على فتح الصندوق لو كنت تفكر في هذا..

لوح بذراعه قائلاً :

ـ لا تقل لي أنك ستحتفظ بوعدك لذلك التاجر الغامض..

ـ ليس لدي شيء أخر.. كما أن لدي هذا التاجر عائلة في بلادنا.

ـ وذلك الكيان العجيب الراقد في الصندوق..

ـ لقد حكمت عليه أنه كيان وعجيب.. لقد طلب مني التاجر توصيله لأهل بيته.. ماذا تتوقع أن يكون في صندوق يرسله رجل لأهله؟.. وحش من إياهم..

ظهر على وجهه عدم الاقتناع بكلامي.. لكنني صرفت الحديث إلى أشياء اخرى بعيدة عن الصندوق.. وفي الليلة التالية أويت لفراشي منهكاً حتى لم ألتفت لأصوات الصندوق التي صارت تساعدني على النوم .. وبعد ساعة او أكثر استيقظت على صوت ارتطام..
قفزت من فوق الأرجوحة مسدداً لكمات وركلات لذلك اللص الجبان الذي.. ثم أفقت اخيراً لأجد تحت قدمي جثة ممدة بجوار الصندوق..
***
تأملنا الجثة الشاخصة والممددة بجوار الصندوق..
إنها لإحدى البحارة المستجدين.. كما توقعت لقد زاغت عينه وحاول فتح الصندوق أثناء نومي.. لكن أنا لم ألمسه.. لقد كنت أضرب الفراغ وهو قد سقط قبل أن أفيق من نومي.. فمن الذي قتل هذا اللص إذن؟..
قال رشيد وهو يتفحص الجثة :
ـ هذا الرجل لم يقتل؟..
نظرت للجثة متفحصاً.. فعلاً لا يوجد أي علامة على القتل.. مجرد جثة شاخصة بلا أي أثر لاعتداء..
اعتدل رشيد قائلاً :
ـ هذا الرجل مات موتة طبيعية..
قال حميد وهو يشير لمطرقة ملقاة بجوار الجثة باشمئزاز :
ـ ربما كانت وفاته طبيعية.. لكن وجوده هنا لم يكن أبداً طبيعياً..

طبعاً كان يحاول فتح الصندوق بهذه الأداة.. لكن الموت داهمه.. شعرت برجفة في أوصالي من هول تلك النهاية.. أن تنتهي حياتك وأنت تسرق.. شيء فظيع فعلاً..
هكذا حملنا الجثة وقمنا بعمل ما ينبغي معه..
صلينا عليه ثم ألقينا جثته في الماء.. دعوت له بصدق أن يغفر له.
ذلك الأحمق الذي اختار أسوأ وقت ليخالف فيه ضميره..
لكن حتى ذلك الوقت لم نربط بين وفاة البحار المستجد الذي حاول فتح الصندوق وبين الصندوق نفسه.. إنها وفاة طبيعية لا شك فيها..
لكن الحالة الثانية جعلتنا نتوقف.. ونبدأ في النظر لهذا الصندوق بنظرة مختلفة.. والثالثة أطارت النوم من عيني..
***
أنظر لحميد فأجده ينظر لي بنفس الطريقة..
حسناً.. لم يعد هناك بحارة مستجدين.. لقد ماتوا واحداً تلو الأخر..
اتخيل سمك البحر الآن وهو يتبعنا بانتظار الجثة التالية..
القاع صار مكاناً محرماً.. صار البحارة يخشون الدخول إلى قمرتي..
حتى من أراد شيئاً يقف بالخارج وينادني بصوت مرتجف.. وموضوع الجثث والأصوات إياها حولت الصندوق إلى قبر مفتوح يقول للعابر هل من مزيد..
كان هذا جيداً من جهة.. فلن أتكلف عناء تعيين حراسة للقاع.. لقد صار الصندوق يحمي نفسه بنفسه..

إنه يقتل من يحاول المساس به.. لا أدري كيف لكن هل لديكم احتمال أخر؟..

***

قال الشهاب :

ـ البحارة يريدون إلقاء الصندوق في الماء.

تركت قمرتي وصعدنا السطح.. وجدت البحارة متجمهرين كالعادة في مثل تلك المصائب.. قلت لهم ببراءة مفزعة أن هذا الصندوق أمانة وهو لا يؤذي إلا من يحاول فتحه.. هكذا طمأنتهم كما ترون.

قال حميد وقد جاء :

ـ ما الذي يضمن لهم أنه لن يغير طباعه.. ثم ما الذي يحملنا على نقل صندوق خطر كهذا أصلاً..

التفت إليه وقد أثار غيظي أنه يقف في الجانب الأخر.. قلت بحدة:

ـ الذي يحملنا على ذلك الأمانة..

ـ ونحن أيضاً أمانة في عنقك..

ـ لن يتعرض أحد لأذى.. فقط دعونا نصل لبغداد لنؤدي الامانة إلى أهلها..

ـ ومن أدارك أننا لا نستغل في أمر شرير..

فكرت قليلاً ثم قلت لهم بابتسامة شريرة :

ـ حسناً.. ليس لدي مانع أبداً.. يمكنكم أن تذهبوا وتلقوا بالصندوق في الماء لكنني لا أضمن ما سيحدث لكم بعدها..

رأيت وجوههم تمتقع وقد أدركوا الفخ الذي أوقعتهم فيه..

الصندوق لن يترككم يا حمقى لتتخلصوا منه..
الحقيقة أنني لم أختبر ذلك.. لكنني توقعته.. من يحاول فتح الصندوق يموت فما بالكم بمن يشرع في التخلص منه.. لكن تبين لي خطا تلك الفرضية فيما بعد..
المهم انتهى الموقف عند ذلك الحد.. وعادت الأمور إلى مجاريها مجرد أصوات خرفشة بالليل لكن بلا جثث والحمد لله.. إن بحارتي والحق يقال لأمناء!
حتى جاء اليوم الذي وصلنا فيه لبغداد..
***
بغداد.. حاضرة الخلافة..
أخذنا نسأل عن بيت تاجر يدعى صياد ابن الحداد..
لكننا اكتشفنا أنه لا أحد في بغداد يعرف رجلاً بهذا الاسم من الأساس..
أحد الظرفاء علق على الاسم قائلاً بسخرية :
ـ صياد وابن حداد كيف يجتمعان؟..
ماذا لو عرف هذا الوغد اسم المدينة التي جئنا منها أيضاً؟..
لكن بالفعل هذا التاجر يبدو اسمه ملفقاً.. كيف لم أنتبه لهذا ونحن في خابور ؟.. ثقة الرجل في وكونه من بغداد جعلتني أتجاهل تلك التفاصيل الصغيرة.
بدأت أدرك حجم المقلب الذي شربته حتى الثمالة.. معنا صندوق قاتل ليس له صاحب.. قال لي الشهاب :

ـ لقد أراد الرجل الخلاص من لعنة ذلك الصندوق.. وقد وجد الزبون المناسب..
احمرت أذناي لسماع التبكيت.. كنا واقفين أنا وحميد والشهاب وسبع البحار وسط حواري بغداد.. متحلقين حول ذلك الصندوق الوغد الذي وقف شامخاً كأنه يتحدانا أن نجد وسيلة للخلاص منه.
ـ سنحفر له حفرة عميقة و..
قاطعني حميد قائلاً :
ـ لا شك أن هذا الاقتراح لم يفت على صياد..
نظرت له بغل وتساءلت من بين أسناني :
ـ يعني؟...
أومأ برأسه قائلاً :
ـ هذا الصندوق لا يمكنك التخلص منه إلا بإعطائه لأحمق أخر.
كورت قبضتي فتراجع مختبئاً خلف الشهاب الذي تمطى قائلاً:
ـ كلام فارغ.. إنه صندوق مثل أي صندوق.. لا أظن أنه سيغادر حفرة عميقة بمفرده.. الأمور الخارقة لا تكون بهذه الفجاجة..
صحت وقد سرني كلام الشهاب :
ـ لنبدأ في الحفر .
ـ لا تتحركوا.
التفنا لمصدر الصوت فرأينا تلك الوجوه الصارمة والأزياء المميزة لرجال الشرطة.. بجوارهم كانت جارية تشير إلينا وهي تقول بحماس:

ـ لقد أثاروا شكوك الحي بأكمله بهذا الصندوق الذي يلفون به ويدورون على البيوت.
قال كبيرهم وهو يفتل شاربه بلهجة خبيرة :
ـ لقد أحسنت صنعاً بتبليغنا.. اقبضوا عليهم..
قلت لمقدمهم منذراً :
ـ مهلاً يا سيدي.. هذا الصندوق فيه شر مستطير.. إننا كنا نزمع الخلاص منه حتى لا يؤذي أحداً..
نظر لي مقدمهم وابتسم مكشراً عن أنيابه..
ـ أها.. من حسن الحظ أن البيمارستان قريب من هنا..
واصطحبونا جميعاً إلى مقر الشرطة وتحفظوا على الصندوق..
قلت لنفسي.. هم جلبوه لأنفسهم..
وهناك أمر مقدمهم أحد رجاله بفتح الصندوق.. صحت محذراً إياهم فرماني بنظرة نارية وقال بغلظة :
ـ أنت هنا لست في سفينتك.. لا أريد أن أسمع صوتك.
ابتلعت ريقي وتبادلت النظرات الممتقعة مع حميد والشهاب وسبع البحار..
اقترب الشرطي من الصندوق وتفحصه ثم مد يده إلى قفله وبدا يعالجه..
هنا رأيناه يشهق.. يمسك صدره.. ثم يهوي تحت أقادمنا..
انقلب مقر الشرطة رأساً على عقب.. كانت لحظات عصيبة بالفعل فقد فقدوا أحدهم في ثوان..
قلت لمقدم الشرطة :

ـ لقد أنذرتك لكنك لم تستمع إلي..
أمر المقدم رجاله بالابتعاد عن الصندوق ثم التفت إلي قائلاً وهو يلهث من رهبة الموقف :
ـ ما حكاية هذا الصندوق؟..
حكيت له قصتنا معه فلم يزدد إلا دهشة واضطراباً.. ولما تمالك زمام نفسه كان قراره أن يتم التخلص من ذلك الصندوق بدفنه..
وعدنا من حيث بدأنا..
أمر المقدم بعض رجاله بالتوجه إلى الصحراء ليحفروا حفرة عميقة ويقوموا بدس ذلك الصندوق فيها..
وجلسنا ننتظر الخبر السعيد في مقر الشرطة حيث بدأت معاملة المقدم لنا تتغير.. سمح لنا بالجلوس وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث في أشياء بعيدة كل البعد عن الصندوق.. بدأت أحكي له بعض مغامراتي حتى تحلق من حولي كل رجال الشرط وكأن على رؤوسهم الطير من شدة الإنصات.. حتى عاد رجال المقدم الذين أرسلهم للتخلص من الصندوق وقد اصفرت وجوههم..
لقد عادوا بالصندوق كما هو طبعاً..
وقبل أن يفتح أحدنا فيه معترضاً قالوا بسرعة وبكلمات مبعثرة أنهم حفروا له عدة مرات ودفنوه وفي كل مرة يخرج لهم من الحفرة كأنه مدفوع من قبل شيطان مريد..
هنا التفت المقدم إلي وقال بصرامة مشيراً إلى الصندوق :

ـ أيها البحار.. لا تؤذينا ولا نؤذيك.. خذ صندوقك هذا وغادر المخفر.. بل غادر بغداد كلها..

***

وهكذا عدنا للخاتون بالصندوق الحبيب من جديد.. طبعاً ثار البحارة ورفضوا الإقلاع بالسفينة ما دام هذا الصندوق اللعين فيها..

قلت لهم أننا سنرميه في البحر.. طبعاً لم يقترب منه أحد غيري أنا وحميد وسبع البحار..

لذا حينما صرنا في عرض البحر قمنا بربطه بثقل وحملناه بحرص إلى الحافة أمام أعين البحارة المترقبة..

حسب ما أفهم سيغوص هذا الصندوق في الماء للأبد..

لو حدث العكس فسيكون هذا الصندوق رفيقنا حتى نعود به لصاحبه في خابور..

طبعاً لم يخيب الصندوق ظننا..

عاد يطفو على سطح الماء وقد تخلص من الأثقال التي ربطناه بها كأنه أحد الحواة المهرة.. طبعاً لن نتركه ليحصل عليه أحمق جديد..

سحبناه مرة أخرى وجلسنا بجواره نضرب أخماس في أسداس..

طبعاً لن نعود لخابور لنسأل عن تاجر يدعى صياد لأننا لن نجده.. ولن نجد من يعرفه..

هذا أمر أوضح من فلق الصبح..

الآن فهمت سر تسمية تلك المدينة بخابور!..

بالنسبة إلينا فنحن متأكدين أننا قابلنا رجلاً يدعى صياد وأخذنا منه صندوقاً لعيناً.. هذا الوغد يعرف سر الصندوق وأراد أن يتخلص منه..
لكن لماذا أنا بالذات؟.. هناك بحارة غيري كثيرين.. هل في الأمر انتقام؟.. لم ألتق بهذا الرجل من قبل حتى تكون بيني وبينه ثارات..
كما أنه حذرني من فتح الصندوق.. هل كان ناصحاً أم هو يريد أن يتأكد من وصول الصندوق إلى بغداد....
هل كان الانتقام موجهاً لبغداد نفسها.. هو يريد أن ينتقل ذلك الكابوس إلى عاصمة الخلافة ذاتها.. ربما يكون الرجل أعجمياً من أعداء الخلافة المتربصين.. أو حتى شيطاناً مريدا..
كل هذا محتمل.. لكنه لن يفيد في الخلاص من هذا الصندوق..
وفي ليلية مرحة من ليالي الخاتون الساهرة وقفنا نحتفل بالصندوق اللعين الذي انضم إلينا مؤخراً وصار فرداً من أفراد بحارتي الأعزاء..
إنه وسيلة فعالة للتخلص من الأعداء.. ربما استخدمناه لصالحنا في مواجهاتنا المستقبلية.. من يدري؟
صب الطاهي المزيد من بربور البحر للبحارة فطلبت منه أن يصب كوب خاص للصندوق.. ضحك البحارة لدعابتي لكن الطاهي قام فعلاً بصب كوب للصندوق وهو يقهقه.. تناولته منه وقمت بسكبه فوق الصندوق قائلاً بابتسامة يائسة :
ـ أشرب كوبك يا رفيق..

هنا رأيت دخان أخضر يتصاعد من الصندوق فتراجعت في وجل.. تصايح البحارة في ذعر.. ويحي ماذا صنعت؟.. بل ماذا صنع بربور البحر؟..

لم نعد نرى الصندوق تقريباً.. فقط ذلك الدخان الأخضر كريه الرائحة يتصاعد ويفعم أنوفنا.. هنا خيل إلي أنني أرى شبح شخص مألوف كأنه يغادر الصندوق وسط الأدخنة يلوح بقبضته كأنه يتوعدنا بالشر.. قبل أن يتلاشى رويداً رويداً ويمتزج مع الدخان.. لقد حلف لي بعض البحارة فيما بعد أنه شبح ذلك التاجر صياد.. لا أستطيع أن أجزم هل كان ما رأيناه حقيقي أم مجرد خيال تخيلناه.. المهم أننا ظللنا نسعل ونبصق في وجوه بعضنا البعض بسبب رائحة الدخان الكريهة.. وحينما انقشع أخيراً لم نجد أثر لذلك الصندوق.. لقد اختفى تماماً بلا أثر..

نظرنا لبعضنا البعض في ذهول وقد احتبست الكلمات في حلوقنا.. تمتم حميد مبهوراً:

ـ لقد تخلصنا من الصندوق أخيراً..

ـ لا لم نتخلص منه..

هكذا صحت فالتفتوا إلي مذعورين.. هنا أردفت ملوحاً بالكوب في يدي:

ـ بل بربور البحر هو الذي فعلها..

***

القصة الرابعة
جزيرة نمنم

حسناً.. لا داعي لمزيد شرح..
يمكنكم أن تتفهموا سر عصبيتي الزائدة، فالذي يوضع في قدر فوق النار بانتظار أن يصير وجبة شهية لقبيلة نمنم لن يحتفظ بأعصابه هادئة..
نظرت للبحارة المقيدين فرأيت الذعر باد في الوجوه التي لم تهنأ بالراحة على ظهر تلك الجزيرة التي قذفنا إليها ذلك الحوت الحيوان!
لقد اختاروني دوناً عن سائر البحارة لأكون أول وجبة يتناولنها بعد نجاح حملة الصيد الثمين..
جاءت الفتاة الحمقاء التي قذفتني بجرتها على الشاطئ، وقامت بسكب بعض الملح والتوابل فوق رأسي وقالت شيئاً للرجال الذين يتلمظون بانتظار الحساء والمرق..
أنا أصير حساء لهؤلاء!..
هنا وقفت بتحدي في وسط القدر.. الماء بدأت حرارته ترتفع.. ولن انتظر أكثر..
رأيتهم يلوحون لي بالرماح بمعنى : أعقل.. لا تفكر في حماقة..
نظرت لهم بكبرياء ومددت يدي وتذوقت بعض الحساء في القدر..
تقلص وجهي مستبشعاً طعم حسائي.. هؤلاء الحمقى كيف سيستسيغون هذا المرق..
ـ إنه بشع.. تلك الحمقاء لا تجيد الطهي.
لوح لي كبيرهم برمحه وأطلق صيحة تحذيرية بلغته الغريبة التي هي أقرب للتقيؤ منها للكلام..
هنا أضاء عقلي بفكرة..

وضعت إصبعي في حلقي وبدأت أستدعي ما في أحشائي.. بدأوا يتجمعون حول القدر ناظرين إلى ما أفعل باستغراب..
بالفعل نجحت في إفراغ ما بمعدتي في القدر فتراجعوا جميعاً وهم يمسكون بطونهم..
لقد نجحت في إثارة تقززهم.. مرحى هؤلاء الذين كانوا بانتظار أكلي أصابهم القرف من رؤية قيئي!..
رفع كبيرهم رمحه في الهواء وصاح.. فرأيتهم يتحاملون على القدر حتى قلبوه في الأرض.. فاندلقت عبره وقد سرني أنني نجوت من السلق..
حملوني وقاموا بتقييدي ثم فكوا حميد ووضعوه في القدر بعد أن غسلوه جيداً (غسلوا القدر طبعاً وليس حميد).. المهم أن الأخير نظر لي وهو في القدر ثم غمز لي بعينه.. لقد فهم قواعد اللعبة..
أووووع ..
وسرعان ما كان كبيرهم يثب في الهواء وهو يزبد ويرغي.. لابد أنه يطلق سباباً مقذعاً بلغته.. لسان حاله يقول أن هذا صيد أسود..
وانسكب القدر من جديد.. وعاد حميد إلى جواري وهو يبتسم بانتصار..
القوم كانوا مثابرين.. لم ييأسوا.. حتماً سيجدون بحاراً مهذباً لا يقيء في الحساء..
لكن التجربة أثبتت أن هؤلاء البحارة مناكيد..
الشهاب لم يجد ما يقيئه فقام بالاستنشاق والاستنثار في القدر.. أما تنتن وتنتون فعمل رهاب الموقف عمله معهما.. وسرعان امتلأ القدر بالبول..

الغريب أنهم لم يلتفتوا لسبع البحار ولا الطاهي البدين .. أي حماقة تلك؟ أم تراه أمر مقصود.. هل تحرم شريعتهم أكل الأحجام الكبيرة؟!
وبعد أن تم غسل القدر ـ الذي لا يملكون غيره تقريباً ـ وملئه عشرات المرات كان رجال نمنم قد سقطوا من الإعياء والجوع على الأرض..
صاح حميد :
ـ سندباد أنت عبقري.
قلت له ملوحاً بالقيد :
ـ علينا أن نستغل الفرصة قبل أن يستعيدوا نشاطهم..
وبدأنا نفك قيودنا بهمة..
هنا سمعنا الصيحة الأنثوية الحادة فالتفنا في ذعر لنجد نساء نمنم يستنهضن رجالها بالصفعات والركلات .. واضح أن العلاقات الأسرية هنا ليست على ما يرام!
ألقينا القيود وبدأنا نعدو باتجاه الأحراش ..
ومن خلفنا عادت تندلع صرخات قبيلة نمنم الوحشية .. عدنا للمشهد الأول.
صاح حميد وهو يعدو بكل قوته :
ـ هذا ليس الطريق إلى الشاطئ.
هتفت في غيظ :
ـ إنها جزيرة.. وكل الطرق ستؤدي للشاطئ حتماً..
هنا توقف الطاهي عن العدو وهو يمسك بصدره.. صرخنا فيه لكنه سقط على مقعدته وهو يعب الهواء عباً.. الأحمق! سيلحقون به..

ـ وداعاً يا رفاق.. طوال عمري وأنا أخسر في سباقات الجري..
وهكذا فقدنا واحد..
استمرت المطاردة وسط الأحراش حتى وصلنا لمرتفع صخري ..
عندها هتف الشهاب وهو يمسك بصدره :
ـ قلبي لم يعد يحتمل كل هذا العدو..
التفت لسبع البحار قائلاً في إنهاك :
ـ أحمله يا سبع البحار..
هجم الأخير على الشهاب الذي صرخ فزعاً وهو يطير ليستقر على كتف سبع البحار المكتنز بالعضلات.. ثم لما استقر برم شاربه قائلاً:
ـ إلى الأمام يا رجال!
عض حميد شفتيه صائحاً ونحن نصعد المرتفع :
ـ كل الطرق تؤدي إلى الشاطئ.. هه!
قلت له لاهثاً :
ـ صه.. ألا ترى أنهم توقفوا عن مطاردتنا..
نظر خلفه فرأى ما أقول..
لقد بدأت قبيلة نمنم تتراجع عن مطاردتنا لسبب غير مفهوم..
هل اكتفوا بالطاهي التعيس؟ تقلصت أحشائي حينما تذكرته.. كان طيباً برغم كل شيء..
هنا سمعت هتاف الشهاب وهو يشير من فوق كتف سبع البحار إلى أعلى المرتفع :
ـ هناك فتحة كهف.. يمكننا أن نلجأ إليها للراحة..

أقبلت لأرى عن قرب.. بالفعل كانت هناك فتحة كهف غائرة تبدو كفك عملاق تنتظر أول أحمق يفكر في...
هتف حميد بما يدور في خلدي:
ـ قد يكون مأوى لوحش كاسر أو مسخ مارد.. ألا ترى أن سكان الجزيرة أنفسهم يهابونه..
ـ حميد لا تفزع البحارة.
قال رشيد :
ـ ربما كان للكهف منفذ أخر يوصلنا للشاطئ حيث تركنا الخاتون.
قال حميد وهو يسترخي فوق صخرة :
ـ الصدف السعيدة لا تعرفنا.
شعرت بالفضول ـ الذي قتل القط يوماً ـ يدفعني دفعاً للدخول.. لو كان حميد محقاً.. فما الشيء الذي يمكنه أن يخيف قبيلة نمنم في ذلك الكهف..
تقدمت من فتحة الكهف وقلت لهم مشجعاً:
ـ ربما كان به مخرجاً كما قال رشيد.. أو على الأقل سيكون ملاذاً مؤقتاً من قبيلة نمنم المتوحشة.
ـ انتظروني!
التفتنا لنجد الطاهي البدين يهرول ناحيتنا و كتل الشحم التي تملأ جسده تترجرج.. هلل البحارة فرحين على حين داعبت لحيتي مفكراً.. كيف تركوه؟
قال حينما وصل إلينا موضحاً :
ـ لقد نظروا لي باشمئزاز ثم تركوني وانصرفوا..

ثم ضحك وهو يرتب على كرشه :
ـ يبدو أنهم لا يحبون السمن..
لهذا تجاهلوا الطاهي وسبع البحار!.. إنهم حمقى يخلطون بين السمنة والضخامة.. هؤلاء اغرب آكلي لحوم بشر يمكن مقابلتهم.. يصابون بالتقزز ويعافون الأكل السمين.. لن تنتهي مشاهداتنا الغريبة في تلك الدنيا حتى نموت.

***

قمنا بجمع بعض الحطب والعشب الجاف وأشعلنا النار لنبصر معالم الكهف من الداخل.. فأشعة الشمس لم تكن تصل إلى الأعماق الغائرة.. وهج النار أظهر لنا هناك رسومات ساذجة بالطبشور على الجدران.. كذلك رأينا في قلب الكهف تلك الأشياء المكومة على الأرض في وضع القرفصاء.. هذه جثث تم تحنيطها بوسيلة ما.. إذن الكهف هو مقبرة الجزيرة المقدسة..
ـ لماذا يجلسونهم هكذا؟..
تساءل حميد .. فابتسمت قائلاً في خفوت :
ـ يبدو أنه نوع من الأدب!..
ـ ولماذا لم يواصلوا مطاردتنا؟
قلت وأنا أخلل لحيتي :
ـ ربما لأن المكان مقدساً..
قال في غيظ :
ـ كيف يدفنون موتاهم إذن؟.. ينقلونهم على البساط السحري..

لوحت له بكفي قائلاً في ملل:
ـ لا شك أن هناك سبب قهري منعهم من مواصلة المطاردة.. المهم أن هذا من حسن حظنا..
ورمقت المومياوات الجالسة القرفصاء وابتلعت ريقي..
ـ حذار يا سيدي...
كذا صاح سبع البحار فالتفتنا إليه مذعورين.. كانت قسمات وجهه تنافس صخور الكهف صلابة وصرامة وهو يشير للمومياوات قائلاً :
ـ إنهم موتى يا سيدي..
ـ أنت عبقري يا سبع البحار.. لوكنت تعتقد العكس فأنت في ورطة..
اختلجت شفتيه وأطرق إلى الأرض قائلاً:
ـ ربما كان دخلونا هذا المكان تدنيساً في عرفهم..
قلت له ساخراً :
ـ ماذا تتوقع منهم سيرفضون أكلنا لأننا مدنسين؟..
ثم أشرت إلى عمق الكهف قائلاً :
ـ دعونا ننظر إلى أي شيء سينتهي طريق المومياوات هذا.. لنواصل السير بين السادة والسيدات.. لكن بحذر..
بالفعل تحرك الرجال بحذر مشوب بالذعر بين الجثث المتحللة كي لا نسقط أو ندهس بعضها فنصاب بلعنة ما..
هنا تصلب سبع البحار وبدأ يتصبب عرقا..
ـ ماذا دهاك يا سبع البحار؟..
كانت عيناه تتسعان ويزداد بياضهما لمعاناً.. وكلماته تخرج متقطعة :

- إنني.. إنني أخشى الجثث..
- تباً ..
قلتها في غيظ فهذا أخر شيء يمكن أن يخطر لنا على بال.. على حين جثى سبع البحار على ركبتيه وبدأ يصدر أصوات شهيق وزفير كأنما يحتضر.. ثم رفع رأسه وقال بصوت مختنق:
- إنها عقدتي منذ الطفولة.. لقد ماتت عائلتي كلها إلى جواري وأنا لا أدري ماذا ينبغي علي فعله.. وظللت نائماً بينهم بانتظار استيقاظهم.. فلم يستيقظوا حتى فتحت عيناي يوماً على مشهد مريع ورائحة بشعـ....
قاطعته في حزم وأنا أرى تنتن وتنتون يلتصقان بي أكثر :
- يكفينا ما نحن فيه يا سبع البحار نرجوك..
صاح في ذعر طفولي :
- أنا لن أستطيع مواصلة الطريق يا سيدي.. يخيل إلي أن تلك الجثث ستنهض وتلتف من حولي و.. وتأكلني..
أغمضت عيناي شاعراً بالصدمة.. سبع البحار فارس الخاتون الهصور يخشى جثث الموتى المحنطة.. هنا هتف حميد :
- يا لك من طفل جبان..
فتحت عيناي فرأيت سبع البحار ينظر لحميد في ذهول قائلاً :
- أنا طفل جبان؟!..
اقترب منه حميد بوجهه، و جثى على ركبتيه ليواصل الكلام بحدة أكثر:
- جبان ورعديد..

انعقد حاجبي سبع البحار وبدأت أسنانه البيضاء تلمع :
ـ كيف تجرؤ؟..
وبدأ ينهض ببطء وبدأ حميد يرتفع برأسه ليبصر سبع البحار بعد أن عاد لحجمه الطبيعي.. لقد نجح في استفزازه بالفعل.. المهم ألا يتهور سبع البحار فنخسر حميد للأبد.. صحت كي أكبح جماح عملاقي الأثير :
ـ سبع البحار..
التفت إلي في رهبة فواصلت مبتسماً :
ـ عليك أن تشكر حميد فقد عالج عقدتك.. وعلينا أن نواصل السير كي لا نضيع المزيد من الوقت..
تجهم وجه سبع البحار وهو يرمق حميد بنظرة جانبية :
ـ لقد سخر من عقدتي..
أشرت للومياوات قائلاً في تؤدة :
ـ لا أحد يخاف من عظام بالية يا سبع البحار.. إنها لا تؤذي أحداً.
هنا اعتدلت إحدى الجثث المتحللة وصاحت بصوت حاد :
ـ هل أنت متأكد؟..
التفت لها قائلاً بتلقائية :
ـ طبعاً يا أنسة إنـ...
قطعت عبارتي واستدرت لأدفن رأسي في صدر سبع البحار هامساً :
ـ سبع البحار هل سمعت الجثة المتحللة تتكلم؟..
أغمض سبع البحار عينيه وهز رأسه في عنف أن نعم...

هنا بدأ حفل الصراخ الجماعي... صراخي، وصراخ وحميد، وسبع البحار و...
وصراخ أشياء أخرى كنا نعتقدها جثثاً محنطة لا تؤذي أحداً...

***

كالعادة تشبث بي تنتن وتنتون كي لا أتمكن من الفرار أو حتى الدفاع عن نفسي.. كانت المومياء التي ردت علي تقترب مني وهي تمد يديها المتأكلتين ناحيتي مطلقةً فحيح يليق بكونها جثة فعلاً..

- أنت منا..

هكذا صاحت الجثة بصوتها المتأكل.. صرخت فيها وأنا أدفعها برجلي:

- لا..

ثم أمسكت بسراويلي خشية أن تسقط بسبب جذب التوأم المستميت.. نظرت لحميد فرأيته يثب متراجعاً ليتفادى هجمة جثة حانقة فقط ليقع في حجر أخرى تلقفته وهي تبتسم له كاشفة عن صفين من الأسنان رائعة الجمال.. وسمعتها تفح كالحية:

- فتىً جميل..

سبع البحار كان خوفه قد انمحى مع تحرك الجثث.. وتحول إلى طوفان هائج يهدد أي واحدة تقترب بالسحق والتحول لفتات..

الشهاب والطاهي ورشيد ومعهم بقية البحارة انطلقوا فارين من الكهف وهم لا يكفون عن الصراخ..

نظرة سريعة طمأنتني على حال رفاقي الأشاوس.. إذن فلأهتم بأمري وبأمر الثنائي المزعج الذي سيتسبب في سقوط سراويلي أمام الجثث..

سحقت بقدمي يد إحدى المومياوات التي حاولت جذب تنتون في تصميم..
تراجعت الجثة وهي تصرخ كأني انتزعت حنجرتها.. لقد دهست يدك فقط يا حمقاء.. لما كل هذا الضجيج ؟!
- سندباد احترس..
امتقع وجهي لصرخة تنتن المحذرة.. توقعت الهجمة من اليمين فاستدرت بوجهي لليمن مطلقاً صرخة مدوية توقعت أنها ستزلزل كيان تلك الكائنات..
طبعاً جاء الهجوم من اليسار وشعرت باليد العظمية ذات الأظافر المخلبية تنشب في عنقي.. ورأيت وجه مهاجمي.. كل المومياوات تتشابه لكن هذه كانت تبتسم في رقة مفزعة..
- نحن لم نذق اللحم منذ عقود طويلة..
صحت مقاوماً شعوري بالغثيان:
- اللحم سيكون ثقيلاً على معدتك لو أردت رأيي..
- سندباد.. لا..
كذا صاح تنتن وتنتون وهما يثبان فوق ظهر الجثة ويتعلقان بعنقها صارخين في غل:
- اتركيه أيتها اللعينة..
ولشدة دهشتي رأيت رأس المومياء ينفصل عن الجسد تحت ضغط تنتن وتنتون.. وتهاوى جسدها على الأرض الصخرية..

صحت فيهم وأنا أركل واحدة أخرى جاءت زاحفة على بطنها وهي تطلق ذلك الفحيح المزعج :

- غادروا ذلك الكهف اللعين..

كشر تنتن وتنتون عن أنيابهم و كورا قبضتيهما صائحين :

- أنهن هشات للغاية..

ثم وثبن وسط الجثث بشجاعة أذهلتني وبدأوا يوزعون اللكمات والركلات يميناً وشمالاً..

هنا سمعت أنين من خلفي فاستدرت صارخاً في لوعة وقد تذكرت:

- حميد..

كان الأخير مازال في حجر المومياء التي تلقفته وهو يفر من أختها.. وحولها التف حشد من المومياوات يتمايلن في نشوة.. مشهد حميد بدا لي للوهلة الأولى كطفل تهدهده أمه.. وقد أثار هذا التصور سخريتي بالطبع .. لكن الموقف كان يستدعي تدخلاً حاسماً لأن المومياء التي على وشك أن ترضع حميد قد سيطرت على ذلك الأخير تماماً.. وبدا في حجرها كالرضيع فعلاً..

لاحظت أن المومياوات يتجمعن عليه أكثر.. ويتحاشين الاحتكاك بنا.. لقد فازوا بغنيمة اليوم..

- إلي يا سبع البحار..

هكذا هتفت وأنا أتقدم من الحفل بحذر.. وخف إلي سبع البحار فلما رأى المشهد ظهرت على وجهه إمارات الغباء..

وجاء تنتن وتنتون وهما يلوحان بقبضتيهما :

- أين حميد؟..
ثم انتبهوا للمشهد فتجمدوا..
المشهد كان غريباً جداً..
المومياوات يؤدين حركات بأيديهن ورؤوسهن كأنها رقصات.. رقصات على أنغام تصدرها المومياء المرضع.. أنغام من حنجرتها المتأكلة...
إنها تغني لحميد أغنية..
مشهداً أثار قشعريرة في جسدي، وغثيان.. الموتى لا يعودون للحياة إلا يوم القيامة.. ما نراه أمامنا هو من قبيل السحر والشيطنة لا أكثر.. ودون وعي بدأت أتعوذ بالله من الشيطان الرجيم..
هنا رأيت المومياء التي تحتضن حميد تلتفت إلي وتصرخ في غل :
- كف.. ستوقظ الطفل..
كدت أتوقف بالفعل معتذراً لها على المقاطعة ثم استدركت أمري فواصلت التعوذ متحدياً..
هنا رأيت المومياوات من حول حميد ينتفضن..
تمتد أيديهن المتحللة تجاهي كأنهن يردن النيل مني.. ثم فجأة تهاوت أجسادهن على الأرض بلا حراك.. حتى المومياء التي تحتضن حميد سقطت على ظهرها وإن بقي حميد في حجرها يئن..
ظللنا حيث نحن جامدين.. فقط ظل لساني يلهج بالذكر احترازاً وقلبي يخفق بقوة..
ثم التفت للتوأم وسبع البحار وازدرت لعابي قائلاً :

ـ الجثث لا تعود للحياة.. كان هذا مجرد عبث شيطاني.. هذا كهف مسكون.
قلتها وتقدمت من حميد ومددت يدي إليه لينهض لكنه ظل حيث هو..
ـ حميد هل أنت بخير..
لم يرد علي.. أهويت إليه صارخاً :
ـ حميد رد علي..
جذبته بعيداً عن المومياء التي استرخى في حجرها تماماً وبدأت أضرب خديه بكفي.. كانت عيناه مفتوحتان لكنه لا ينظر لشيء.. يا إلهي..
سمعت سبع البحار يهتف من خلفي :
ـ لقد أصابته لعنة.. اتركه.. ابتعد عنه..
قلت له مستنكراً :
ـ لعنة!.. إنه ممسوس..
هنا سمعت صوته يهمس :
ـ أنا لست ممسوساً..
التفتنا إليه متنفسين الصعداء.. ولم أتمالك منع نفسي من ركله صائحاً:
ـ تباً لك.. لقد أفزعتني أكثر من الجثث المتحللة..
نهض وهو يرمق المومياء التي كان يرقد في حجرها كالطفل الوليد..
ـ رباه.. لقد خيل إلي أنني أجلس في حجر أمي فعلاً..
تبادلت مع سبع البحار النظرات ثم التفت إليه وأنا أقاوم الابتسام :
ـ لقد سحرت عينيك يا حميد.. لا أظنها تشبه أمك.. على الأقل ليس وهي حية ترزق..

ـ أين البحارة؟
ـ لقد فروا من الكهف.. فضلوا مواجهة نمنم على مواجهة مومياواتهم.
هرش حميد رأسه وقال بإعياء :
ـ يجب أن نغادر تلك الجزيرة.. أشعر أنني لست على ما يرام..
قلت مشيراً إلى الجثث :
ـ سنفعلها.. لكن علينا أولاً أن نواجه نمنم بموتاهم.

***

وقف البحارة يرتجفون على باب الكهف وهم يتخيلون مصيرنا بالداخل.. صاح الشهاب متألماً:
ـ يا للجبن.. لقد رأينا العديد من المشاهد المرعبة مع السندباد ولم نتركه ونفر.
قال رشيد :
ـ ربما لأننا لم نقابل جثث تدب فيها الحياة من قبل.
ـ أنت طبيب يا رجل.. الجثث لا تدب فيها الحياة..
تصلب رشيد فجأة ثم أشار بيد مرتجفة للكهف:
ـ شكراً على تصحيح المعلومة.. لكن قل لي بربك.. إذا كانت الجثث لا تدب فيها الحياة فما كنه هذه الأشياء القادمة..
هنا لمح البحارة تلك الأشباح التي تتحرك قادمة من داخل الكهف.. لم تكن حركتها طبيعية.. حيث بدت وكأنها تعبر الفراغ بوضع القرفصاء إياه!
وصرخ رشيد :

ـ لقد فتكوا بالسندباد وجاءوا ليفتكوا بنا.. انجوا بأنفسكم.
وقبل أن يتحرك أحدهم كنت قد برزت من خلف الجثة التي أحملها قائلاً لهم :
ـ هيا يا كسالى.. ليحمل كل منكم جثة ويأتي خلفنا..
طبعاً لم يتحرك واحد منهم.. صرخت فيهم:
ـ هيا أو ابقوا في جزيرة نمنم للأبد..
وهكذا أرغم كل بحار على حمل جثة تناسبه وبدأنا نمشي متقين بالجثث كالدروع.. شرحت لهم خطتي العبقرية.. هؤلاء يخشون موتاهم ويعتبرون المساس بهم جريمة وتدنيس.. لن يقترب منا أحد طالما معنا هذه الجثث..
قال رشيد من وراء الكمامة التي أحاط بها أنفه وفمه:
ـ هذا لو لم نمت من رائحة تلك الجثث..
قلت له وأنا أبعد شعر المومياء عن فمي :
ـ المهم ألا تنهض ثانية.
هبطنا المرتفع إلى الأحراش وبدأنا نتحرك بحذر بين الشجر متوقعين الهجوم علينا في أية لحظة..
قطعنا مساحة الأحراش كاملة دون مشكلة.. وحينما وصلنا إلى مساكن القوم وجدناها خالية تماماً.. أين ذهبت القبيلة؟.. القدر ملقى بإهمال والنار قد خبت..
نظرنا لبعضنا البعض بارتياب.. همس حميد:
ـ ربما يكون فخاً..

قلت لهم وأنا أصلح من وضع المومياء التي أمسكها :
ـ الخطة كما هي.. سنستمر حتى نصل بسلام إلى الخاتون.
واصلنا التحرك حتى وصلنا للشاطئ الذهبي والجو الساحر الذي خلب لبنا حينما هبطنا لأول مرة.. ولا أثر لمخلوق.. هل نزحوا جميعاً من الجزيرة..
ودعنا المومياوات عند الشاطئ وركبنا القوارب إلى الخاتون..
حينما عدنا للخاتون تنفسنا الصعداء.. والبعض خر ساجداً شكراً لله..
قليلين من البحارة الذين هبطوا على جزيرة نمنم وعادوا ليحكو ما رأوا..
لقد عدنا، وسأدون تلك المغامرة السريعة في سجلاتي التي تطير أولاً بأول إلى مكتبة الخليفة ببغداد..
رفعنا الهلب وفردنا الأشرعة.. بدأت الخاتون تتمايل كأنها حسناء تتأود.
هي النهاية إذن يا جزيرة نمنم..
هنا سمعنا الصرخات المألوفة تدوي من حولنا..
وبدا للوهلة الأولى كأن السماء تمطر علينا العشرات من رجال قبيلة نمنم .. إنهم يهبطون من فوق الصواري، ويبرزون من القاع برماحهم وجماجمهم، ووحشيتهم وغلهم وتغيظهم علينا، بعد أن دنسنا مقدساتهم..
وسمعت حميد يهتف بلوعة:
ـ لقد صنعوا لنا فخاً في الخاتون نفسها..
كنا محاصرين الآن في قلب سفينتنا من كل الجهات.. يبدو أنهم كانوا يراقبون تحركاتنا منذ خروجنا من الكهف.. تركونا حتى صعدنا بسلام للخاتون بعد أن تخلصنا من المومياوات التي كانت تحمينا منهم..

إنهم أذكياء رغم همجيتهم وتخلفهم الحضاري..
والآن تضيق علينا دائرة الرماح فوق سطح الخاتون.. وها هو كبيرهم يهتف بلغتهم الغريبة التي شبهتها بالتقيؤ.. لابد أنه يوبخنا قبل أن ينفذ فينا حكم الإعدام..
قلت للبحارة وقد التصقنا ببعضنا البعض من شدة الحصار :
ـ إننا محاصرون لكننا على أرضنا.. لا أرضهم..
قال الشهاب وهو يحاول تحاشي الرمح المسدد إلى نحره :
ـ سندباد أهبط على أرض الواقع..
نظرت إليه بحدة وبرقت عيناي :
ـ صدقت يا شهاب.. استعدوا حينما أعطيكم الأمر.. سنهبط جميعاً إلى أرض الواقع..
ـ نعم!
قالها الشهاب في غباء فقلت مصححاً :
ـ أعني سنجثو جميعاً على الأرض..
هتف حميد :
ـ ونطلب منهم الرحمة؟
ـ لا يا أبله..
كنت أتابع ببصري حركاتهم وانتظر اللحظة المناسبة التي سيهاجموننا فيها بالرماح..
ولم يطل الأمر كثيراً.. كنت أشم رائحة دماء غزيرة ستراق هنا على سطح الخاتون.. لكنها لن تكون دمائنا إن شاء الله..

وحانت اللحظة الفاصلة..
صرخوا جميعاً صرخة رجل واحد واندفعوا برماحهم نحونا من كل جانب..
ـ الآن يا حمقى!
وجثونا جميعاً على الأرض لنترك رماح قبيلة نمنم تتصافح فيما بينها إلى أن وجدت سبيلها عبر لحومهم وعظامهم..
وتحول الصراخ الحماسي إلى أنين وحشرجة.. وأظلمت السماء من فوقنا بمظلة الرماح الملتحمة بالأجساد، وأمطرتنا بدمائهم الساخنة..
سلكنا سبيلنا من بين أرجلهم قبل أن يتهاووا، ولنفسح مجالاً للهواء النقي بعيداً عن الجثث المحتضرة..
كانت نهاية دموية وقاسية.. لكنهم لم يدعوا لنا سبيلاً أخر للنجاة..
ألقينا بجثثهم في الماء ليلتقطها ذويهم الذين كانوا ينتظرون عودتهم إليهم باللحوم البشرية.. فعادوا إليهم جثثاً طافية..
وقفت أرمق المشهد من حافة الخاتون بينما ينظف الرجال سطح الخاتون من الدماء وبقايا آثار قبيلة نمنم..
جاء حميد ليرتب عاتقي قائلاً :
ـ كانت مذبحة رهيبة.. سنظل لأيام طويلة تطارد أحلامنا مومياوات نمنم..

هززت رأسي في بطء دون تعليق.. عاد ليقول في حيرة :
ـ ما الذي جرى للجزر؟.. نريد جزيرة واحدة طبيعية.

لم أعلق فعاد يسألني :

ـ إلى أين سنتجه؟

سكت برهة وأنا أرمق الأفق الشرقي في حيرة.. ثم لم أجد إلا أن قلت له:

ـ قل للبحارة.. أننا في طريقنا لجزيرة عرف الديك.

- .....

***

القصة الخامسة

جماعة الجمجمة

رواية قصيرة

مقدمة سندبادية

اليوم أحكي لكم قصتي مع إحدى جماعات قراصنة البحار
وهي جماعة الجمجمة ...
طبعاً الاسم المقبض لا يوحي بالجديد لكن مغامرتي تلك لم تكن كأي مغامرة سمعت عنها تتعلق بالقراصنة في عرض البحر...
السندباد سيحكي لكم شبه ملحمة.. وهي مزيج من الصراعات الملتهبة التي تدور بين البحارة تعساء الحظ والقراصنة الأوغاد .. ومن أشياء أخرى غامضة لن أفصح عنها الأن حتى تكون هناك قصة ...
إنها قصة عن الأمل حينما يخبو فلا تجد ملاذاً إلا في قلمك الذي تسطر به مغامرة جديدة تطمح فيها إلى غد أفضل ...
ومن يدري فقد تأتي ـ أحياناً ـ الرياح بما تشتهي السفن ...

***

1- جمجمة تبتسم

قمت بحك الإبرة عدة مرات في قطعة الحجر الجاذبة قبل أن أضعها فوق الإناء المملوء بالماء على قطعتين من خشب وجلست أراقب اتجاه الإبرة ..

ها هو ذا الشمال ينجلي ...

التفت لحميد وقلت بلهجة جافة :

- ما رأيك ؟..

قال في تبرم وهو يرمق الإبرة الطافية :

- ما زلت أفضل حدسي ..في تحديد الاتجاهات ...
- حدسك الذي أوقعنا في جزيرة أكلة اللحوم الأدمية ؟

احتقن وجهه وصاح ملوحاً بكفه :

ـ أنا لا أعرف الغيب يا هذا وكذلك ذلك الحوت العاشق لقد أنزلنا عند أقرب جزيرة إليه ..و...

قاطعته وأنا أتحاشى لكمه في أي لحظة :

- تباً لك .. أما زلت تدافع عنه .. لقد كدنا أن نصير طعاماً لأولئك المفترسين..
- والحمد لله نجونا ...
- بأعجوبة ..لا تنس هذا ...

قلتها ثم أزحت الإناء جانباً وتناولت الإبرة وأعدتها لجيبي قبل أن أكمل :

- وليس عندي استعداد للسير وراء حدسك مرة أخرى.

كنت لم أتخلص بعد من أثر مغامرتنا الكابوسية في جزيرة أكلي البشر، وكان الغضب والحنق يعصف بي، وأدرك حميد ذلك فقرر أن ينهي صفحة الجدال حتى تهدأ أحوالي أما، أنا فكنت أعلم أن حميد لا علاقة له بما جرى، وإنما كان سبباً في نجاتنا من الحوت الضخم بعد أن تفاهم معه، والقدر ألقى بنا في تلك الجزيرة المشؤمة. كنت غاضباً وأريد أن أفرغ شحنة غضبي في أحدهم .

جلست قليلاً حتى هدأت نفسي ثم قررت أخيراً الخروج من القمرة والصعود إلى سطح الخاتون لمتابعة سير العمل ..

تنتن وتنتون ينظفان السطح وسبع البحار يتسلق الصاري

ورشيد الطبيب يهوي بهراوة ضخمة على رأس أحد البحارة كنوع من التخدير والشهاب يغفو في ركن جانبي وبين الحين والحين يهش عن وجهه ذباباً وهمياً ..

كل شيء كان يتم على قدم وساق .. والخاتون تمخر عباب البحر برشاقتها المعهودة كل شيء تمام ولم نخرج من مغامراتنا بخسائر في الأرواح فلما العصبية إذن..

كان حميد واقفاً هناك عند مقدمة الخاتون ..

يتكئ على الحافة ويرمق الموج المتلاطم في جمود.. بتثاقل أقتربت منه وبتردد وضعت كفي على عاتقه ثم هززته في غلظة قائلاً بصوت خشن..

- حميد..

التفت إلي بوجه خالي من الانفعالات فأكملت بصوت متهدج:

- دعني اعتذر كنت مشحوناً منذ البداية و...
- وأفرغت طاقة غضبك في صديقك ..
- إذن لماذا جلبتك أأ.. أقصد ومن غيرك يتحملني يا حميد ..

هز رأسه في سأم ثم أشاح بوجهه تجاه البحر ..

- حميد لن استجدي عطفك أمام البحارة ...

قال دون أن ينظر إلى :

- وأنا لم أطلب منك أن تستجديني أعرف أنك تشعر بالحرج بعد ما حدث لك في الجزيرة المشؤمة ..

تنحنحت في غيظ.. يا لك من وغد لقد كدت أنسى ما حدث ..

قلت له وأنا احك أنفي في حرج :

ـ المرء لا يجد نفسه كل يوم في قدر يغلي على الماء لقد كانت تجربة بشعة الأوغاد اختاروني دوناً عن سائر البحارة ليقوموا بطبخي في القدر ..

بدأ شبح ابتسامه يداعب شفتي حميد وهو يقول :

ـ لكنك تخلصت من الموقف ببراعة..

هززت رأسي في محاولة لنسيان ما كان ثم عدت أقول في إشراق :

ـ المهم أننا مازلنا أحياء قهرنا أكلي لحوم البشر وفررنا من بين أسنانهم ...

هنا دوي الصوت العميق المميز لسبع البحار من فوق الصاري المسكين ليقطع حديثنا وليتحفنا بمصيبة جديدة.....

- هناك سفينة تقترب تحمل شعاراً غريباً يا ريس سندباد ...

رفعت طرفي إليه متسائلاً :

- ما صفته؟..

صاح في تلقائية :

- جمجمة تبتسم ...

***

جمجمة تبتسم في جشع ...!!

كان عقلي يعمل بسرعة البرق وبدأ البحارة يضطربون من حولي.. تنتن وتنتون تكورا عند قدميا وأجسادهم تنتفض فرقاً، رشيد التفت بهراوته ناحيتنا وكذلك مريضه الذي كان يمثل دور المخدر، وشعرت بقبضة حميد تعتصر عضدي وسمعت صوته المتجهم يرن في أذني :

- إنهم قراصنة الجمجمة الشيطانية .

وجاء الريس شهاب يتسائل في براءة عما يجري وهو بعد لم يتخلص من أثر النوم ثم امتقع وجهه حين عرف وصاح في جزع :

- جماعة الجمجمة !! فليرحمنا الله ...

وكان هذا كافياً ليزداد الاضطراب والذعر بين البحارة البائسين ولمحت بعضهم كان يتجه على أطراف أصابعه ناحية حافة الخاتون محاولاً الهرب و ....

- ثاااااااابت .....

تجمد الكل في مكانه إثر صيحتي الجهورية التي تجمد الدماء في العروق ذاتها وبوجه محتقن تابعت في حدة :

- لقد واجهت الخاتون ما هو أشد هولاً فلما الفرق إذن ؟..

قال الشهاب بلهجة توحي بالخطر :

- جماعة الجمجمة ليسوا قراصنة عاديين ..

وازدرد لعابه ثم استطرد :

- إنهم جماعة شيطانية ...

وصاح بحار متحمس :

- إنهم يفتكون بالبحارة تعسي الحظ عن طريق جماجم نارية يقذفونها على المراكب والسفن فتشتعل فيها النيران ...

جاء رشيد وهو يجر البحار الذي كان يخدره منذ لحظات وقرر أن يدلو بدلوه :

- هذه خرافات بحارة إنهم لصوص كأي لصوص عاديين.

صحت مؤيداً رشيد :

- وسنلقنهم درساً لن ينسوه ...

هنا شق شيئاً ما الهواء بجواري وارتطم بصاري الخاتون .

بعدها لم أرى سوى الشرر يتطاير ولم أسمع سوى الرعد يصم أذنيا.. وحينما عثرنا على أطرافنا المبعثرة هنا وهناك أدركنا أنهم بدأو يقذفوننا بالأنفاط ..
وأدركت أنه قد حان وقت الفرار !!...

***

2- جمجمة من ذهب

قمنا بفرد الأشرعة كلها وشرع البحارة يجدفون كالمجانين..
وجريت مع الشهاب وحميد نحاول إخماد النار التي نشبت أسفل الصاري.. هنا فوجئنا بجسد سبع البحار الضخم يهوي نازلاً من أعلى الصاري على الحريق فيخمده من فوره.. وقفنا نتأمله غير مصدقين فاعتدل في حرج قائلاً :

- عفواً يا سيدي لم أكن أقصد ..

قلت له في غيظ وانا ألهث:

- لاعليك يا سبع البحار يمكننا إشعال واحدة أخرى !!

قذيفة ثانية تمرق من جوارنا لكنها تخطئ الهدف وتغوص في قلب المحيط ...

- أسرع.. أسرع.. يا حمقى..

رشيد يحمل تنتن وتنتون إلى قاع السفينة ويغلق الكوة من وراءه بإحكام قبل أن تهوى القذيفة الثالثة فوق الكوة وتتناثر الشظايا في كل مكان ..
والتفت ناحية البحر ..
كانت سفينة الأوغاد تتحرك في بطء مستفز ..
هل يتصورون أنهم سيصلون إلينا بهذه السلحفاة القبيحة؟
ومرة رابعة تشق الهواء قذيفة أنفاط.. وترتج الخاتون ويفقد البعض توازنه..

صاح الشهاب :

- لن يصلو إلينا يا سندباد فقط هم يعتمدون على تعطيلنا بالقذائف النارية ..

العرق ينساب على السواعد المفتولة التي تجدف ..

لهاث البحارة المنهكين ينافس هدير الموج وهم يجدفون بكل ما أوتوا من قوة.. وبدا الأمر وكأننا سنظل نجدف حتى تقوم الساعة.. وأخيراً غابت سفينة الجماجم في الأفق وعاد سبع البحار يرتقى الصاري وليعلن لنا في حبور أنهم ذهبوا إلى غير رجعة..

- هوررراااه ....
- هورررراااه .....

تعانق البحارة غير مصدقين وجاء الشهاب متهللاً ليمسك عاتقى في قوة ويرجه :

- فعلناها يا سندباد لقد نجت الخاتون ...

ظللت جامداً لبرهة.. هل استسلم القراصنة بهذه البساطة؟..

نعم عامل السرعة يجعل لحاقهم بالخاتون الرشيقة ضرب من المستحيلات لكن ...

هناك شيء ما غير مريح في كل ذلك ...

ألستم معي في ذلك .؟..

هنا شعرت بمن يجذب كمي فالتفت لأجد حميد يحمل شيئاً ما قد لفه في خرقة قماش، والدخان يتصاعد منه، وأمام عيناي المذهولتان كشف جزء من الخرقة ليريني إياه :

ـ سندباد هذا ما تخلف من أنفاط القراصنة ..

وكان ما وجده مذهلاً بحق ...

***

كان البحارة المفتونين قد تركوا كل ما في أيديهم والتفوا من حولنا يتأملون تلك العجيبة التي جاء بها حميد في خرقة وتوالت العبارات المبهورة ...

- جمجمة ذهبية ..
- إنها من الذهب الخالص ...
- مستحيل ..كيف سبكت تلك التحفة ؟..

ـ دعونا نركز أكثر لنتأكد ..

كان هذا يكفيني فقمت بزجر البحارة فتناثروا من حولنا مثل الذباب الذي قمت بهشهشته من فوق قطعة حلوى ..

نظر لي حميد وقال في عدم فهم :

- هل لديك تفسيراً لهذا الذي وجدنا؟

قلت له وانا لم استوعب الصدمة بعد :

- هذه الجمجمة ثروة تكفينا لنتقاعد من عمل البحر ..
- بل هذه كارثة حاقت بنا ...

التفتنا أنا وحميد إلى صاحب الكلمة ورأينا الخطورة على وجه الريس شهاب وعينه لا تفارق الجمجمة الذهبية التي نحملها وابتلع ريقه الذي أساله مشهد الجمجمة المصنوعة من الذهب الخالص ثم استطرد :

ـ هذه الجمجمة لعنة ألقاها القراصنة فوق رؤوسنا لن نجني من ورائها إلا الشقاء ..

أه ..

هذا ما كان ينقصنا، خرافات العجائز هذه ..

قلت له في ملل :

- شهاب لن نعود لهذا الحديث ثانية ..

أشار الشهاب للجمجمة وقال بلهجة تحذيرية :

- هل تظن أن القراصنة يقذفون السفن بالذهب الخالص كنوع من باب التودد.. القراصنة يسلبون الذهب ولا يعطونه ...

كان كلامه منطقياً من هذا الوجه، فعلاً ما السر وراء إلقائهم بتلك التحفة فوق رؤوسنا؟ لكن الكلام عن لعنة ما أومحاولة شيطنة الأمور مباشرة هذا هو ما لا أقبله ..

بداية لنحاول إيجاد تفسير منطقي لما حدث ..

- تخلص منها يا سندباد قبل فوات الأوان..

انتزعتني كلمات الشهاب من بركة الأفكار التي غصت فيها وشعرت فجاة بالحنق يعصف بأعصابي.. اتخلص من ماذا أيها المأفون ؟..!

صحت به في ثورة :

- هل جننت أيها العجوز أم أنها الشيخوخة ؟

اتسعت عينا الشهاب غير مصدق للطريقة التي كلمته بها ..
وفتح فمه مذهولاً ليقول شيئاً لكن قذائف الانفاط التي كانت تخرج من فمي لم تعطه الفرصة ليقول شيئاً ..

- من أنت حتى تعطيني الأوامر ؟ الخاتون لها ربان واحد

وهو صاحب القرار الأول والأخير وكلكم له تبع ..
وتناولت الجمجمة من حميد الذي لم يكن أقل ذهولاً من الشهاب بسبب ردة فعلي ..
كانت ماتزال ساخنة من أثر الأنفاط رغم الخرقة التي لفها حولها وضممتها إلى صدري كأنني أحميهامن عيون الناظرين وسرت متجها ناحية القمرة، كنت بحاجة لبعض الراحة والتأمل..
تأمل الجمجمة الذهبية العجيبة ...

***

فيما بعد عرفت هذا الذي جري ...
في تؤدة يقترب حميد من الشهاب الذي أعطى ظهره للجميع
بعد انصرافي العاصف من أمامهم وفي بطء رفع كفه وربت
على عاتق الشهاب الضامر ومن داخله كان يضطرم غيظاً وحنقاً بسبب الكلام النابي الذي تفوهت به ..

- لا تحزن أيها الشهاب أعصاب السندباد لم تعد كما كانت

أنت أستاذه وهو يحبك لأنك تذكره بوالده و...
كان حميد يجاهد كي يجد كلمات مناسبة تخفف عن العجوز
لكن في الواقع كان العجوز مشغولاً بشيء أخر لم يتوقعه حميد.
قال الشهاب وعينه الذابلة ترنوا جهة الأفق :

- هل تظن أنني تأثرت حقاً بما قاله السندباد ؟

قال حميد في دهشة :
ـ أي حيوان كان سيتأثر بمثل هذا الكلام وتلك اللهجة أيها الشهاب.
لاح شبح ابتسامة باهتة على شفتي الشهاب المتشققتين وهو يقول :

- كان يمكنني أن أموت كمداً لو كان السندباد يتصرف بطبيعته يا حميد ..

والتفت إليه في حدة وأردف هامساً :

- ألم تفهم بعد يا بني السندباد وقع تحت تأثير استحواذ شيطاني فتلك الجمجمة التي قذفتنا بها القراصنة جمجمة شيطانية ..

***

لكن ما الدليل على كلامك أيها الشهاب ؟..
الدليل سهل وبسيط علينا أن ننتظر ونراقب السندباد في حركاته وسكناته عندها نتأكد أن تلك الجمجمة التي ألقيت إليه لم تلقى إليه مكافأة على هروبه من قبضة القراصنة ..
عقد حميد ساعديه أمام صدره مغمغماً :

- هذا ليس صعباً أيها الشهاب ..

حاول الشهاب أن يزدرد لعابه وهو يتمتم :

- فليكن الله في عوننا لو كنت مصيباً فهذا يعني أن ربان الخاتون وموجهها سيكون تحت سيطرة قوى شيطانية.

تجهم وجه حميد وأشاح بوجهه قائلاً :

- لا تنعق مثل الغراب أيها العجوز ودع المستقبل يكشف لنا ماوراء الأكمة ..

***

ما أجملها من جمجمة ...

وضعتها بحرص على منضدة صغيرة تجاور فراشي وجلست أتأملها مليا ...

لولا أنني متأكد أنها من الذهب الخالص لشككت في كونها جمجمة حقيقية.. الحقيقة أنني صرت متيماً بها.. هل رأيتم شخصاً متيماً بجمجمة ؟ هذا هو ماكنته ولم يكن السر في كونها من ذهب ..

لقد خطف الذهب بصري في البداية وسال له لعابي ..

لكن الأن الأمر يختلف، الأمر يعجز لساني عن وصفه مثل البرق الذي يسطع لك فجأة ليضيء كل شيء في لحظة ثم يختفي فيسود الظلام وتبقى وحدك في مستنقع الحيرة والظلام تنتظر وتنتظر كي ينتشلك وميض أخر..

رباه كم تداري تلك العينان الغائرتان من أسرار ..

وشعرت بالفضول وشيء من الهياج العاطفي ناحية ذلك المجهول الذي يقبع في سفينة القراصنة ..

ونهضت في حزم وقد عزمت أمري نحو هدف محدد ..

قمت بدس الجمجمة في صندوق خشبي داخل كوة سحرية مجاورة لفراشي ثم توجهت ناحية باب القمرة وجذبت المقبض.. لكن حينما فتحت الباب فوجئت بجسد ضئيل يتكوم عند قدمي وهو يئن ..

- الشهاب ماذا كنت تصنع ؟
- كـ... كـ...كـ...كـ...

عقدت ساعدي أمام صدري وقلت في صرامة :

- هل تحولت لدجاجة أيها الشهاب؟ تكلم ماذا كنت تصنع عند بابي؟..

اعتدل الشهاب وهو يتحسس ظهره في ألم ثم تنهد قائلاً :

ـ كنت أطمئن عليك، فأنت لا تبدو في حالة جيدة منذ نجونا من قراصنة الجمجمة ..

اقتربت بوجهي من وجه العجوز المتغضن وقلت من بين أسناني :

- أنت لا شأن لك بي البته..

وتركته خلفي وتوجهت في خطوات سريعة لسطح الخاتون.

لقد كاد ذلك العجوز أن ينسيني ما عزمت عليه و..

وحينما صرت وسط بحارتي الأفذاذ وضعت قبضتي في خاصرتي وصحت فيهم بحبور :

- هيا يارجال سنعود أدراجنا للوراء حيث تركنا القراصنة ..

اتسعت عيون البحارة وفغرت أفواههم في بلاهة لكنني كنت لا أبالي بتلك المشاعر التافهة...

وصاح حميد في جزع :

- سندباد هل جننـ .؟..

قاطعته في صرامة قبل أن يتمها:

- بلى يا حميد سنقوم بمطاردة القراصنة هذه المرة ولا تنس من الربان ههنا .

***

3ـ جمجمة ..اثنان .. ثلاثة

وكنت لا أدري أن الوغد العجوز يقلب قمرتي رأساً على عقب.. الشهاب حيث تركته يبحث كالمحموم عن شيء ما.. شيء ما ينغص على الخاتون سيرها.. شيء ما ابتلي به الربان وصار يسيطر على كل حواسه..

أين أنت أيتها اللعينة ؟..

هنا شعر بالقبضة المضطربة تمسك بعاتقه .. التفت في لوعة ثم أطلق زفرة حارة :

ـ أهو أنت ظننتك السندبا...

قاطعه حميد وكل خلجة من خلجاته ترتجف :

ـ الأمر جد خطير أيها الشهاب.. السندباد يبحر باتجاه القراصنة يزعم أنه يبغي مطاردتهم ..

ـ هراء ... إنها تسيطر عليه .. ستجعله يتجه لحتفه.. لكن أين هي؟..

وركل فراشي بقدمه محنقاً ثم وثب متألماً على ساق واحدة كاللقلق ..

لكن حميد بوصفه صديقي اللدود فهو يعرف أين يخبئ صديقه حاجياته.. الكوة السحرية طبعاً وهل هناك غيرها..

هذه أفة من أفات الصداقة المزمنة ..

وأمام عيني الشهاب المذهولتين أخرج حميد الجمجمة المشؤمة..

ـ لقد قلبت القمرة رأساً على عقب.

قالها الشهاب في ضيق فابتسم حميد وهو يقول بلهجة منتصرة:
ـ هذه فائدة الصداقة ..
قالها حميد في ثقة لكنه لم يدر لماذا تغير لون الشهاب فجأة
وشحب وهو ينظر لنقطة ما وراء كتفه، وقبل أن يستوعب دوت كلماتي
في أذنه ملتهبة :
ـ بل هذه هي نهاية الصداقة ...
أذكر وقتها وأنا أقف على باب القمرة أتأمل تلك المهزلة،
أنني كنت أحمل في قلبي كل حقد وغل الدنيا لأقرب البحارة لقلبي ..
حميد والشهاب ...

***

ببطء ناول حميد جمجمتي الأثيرة للشهاب ولمحت في عينيه نظرة
متحدية وهو يقول بثبات :
ـ تخلص منها أيها الشهاب ...
كشرت عن أنيابي وأنا أزئر بتوحش :
ـ خونة ..
صاح الشهاب بصوت مبحوح وهو يضم الجمجمة إلى صدره:
ـ بل نحن ننقذك منها ..إنها تستحوذ عليك ...
تقدمت منهم في بطء وانا أسد عليهم المخرج من القمرة قائلاً:
ـ بل بريق الذهب هو ما أدار رؤوسكم وجعلكم تنقلبون علي.
صاح حميد وهو يحول بيني وبين الوصول للشهاب :

ـ قلت تخلص منها أيها الشهاب ..
ونظر لي في تحد مردفاً :
ـ ودعه لي .. سأتدبر أنا أمره ..
صرخت في توحش وأنا أثب عليه :
ـ تعال إلى إذن يا توأم روحي ..
وتعانقنا تعانقاً حاراً ملتهباً أمام عيني الشهاب الجاحظتين ...
عناق من نوع خاص.. بالتحديد هو للعصر أقرب منه للعناق..
كان حميد يجذبني بعيداً عن الباب ليسمح بعبور الشهاب لكنني دفنت ركبتي بين أضلعه فتهاوى وهو يشهق والتفت جهة الشهاب الذي لم يجد الفرصة للمروق من باب القمرة ووقف يرتجف أمامي كورقة ..
ـ الأن دورك يا كومة العظام النخرة ..
قلتها وأنا استعد للوثوب عليه لكن حميد عاد متحمساً وقد تحول لإعصار جارف أحاط بخصري وأزاحني من طريق الشهاب ..
وتكومنا في ركن القمرة وعظامنا تئن ..
ولم ينتظر الأخير..
وسرعان ما وثب خارج القمرة في نفس اللحظة التي صرخت فيها من بين أسناني وأنا اخمش حميد في وجهه :
ـ لن تفلتا مني ..
صرخ حميد وهو يدفع إصبعيه السبابة والوسطى في فتحتي أنفي :
ـ بل أنت الذي لن يفلت من ضربتي الخطافية تلك ..

لكنني أرجعت رأسي للوراء قليلاً فأدخل الأحمق إصبعيه في فمي بدلاً من أنفي وسرعان ما تلقى أقسى عضة من أسناني الحادة ومكث يتلوى من شدة الألم ..

ولم أنتظره حتى يفرغ من ألامه قمت بتسديد ركلة عاتية إلى ضلوعه ووثبت من فوقه خلف الشهاب ..

كنت هائجاً كالوحش الجريح غاضباً مفعماً بالحقد والكراهية

فلو طالت يدي ذلك العجوز فلن يتبقى منه ما يصلح لتلميع حذائي ..

وهكذا سللت سيفي من قرابه ولوحت به مرتين في الهواء ثم...

كان مشهداً لا ينسى..

الشهاب يعدو ناحية حافة الخاتون وهو يحمل الجمجمة الذهبية فوق رأسه بكلتا يديه، وأنا من وراءه ألوح بسيفي والزبد يتطاير من أشداقي ..

وصرخت في البحارة :

ـ أوقفوا اللص ..لقد سرق جمجمتي ...

هنا شعرت أنني أرتفع لأعلى .. لأعلى ..

وحينما نظرت لأسفل رأيت من يحملني كالطفل ..

ـ حتى أنت يا سبع البحار ..

قلتها وسيفي يضرب يمينا ويساراً في محاولة يائسة لإصابة سبع البحار الذي انضم لقائمة الخونة، لكنه قبض على ساعدي وثبته عالياً وسمعته يقول متألماً :

ـ سامحني يا سيدي ..أنا مضطر لهذا.. فقط لحمايتك ...

صحت وأنا أحاول التملص من جبل العضلات المحيط بي :
ـ الكل خائن .. الكل سيعاقب و...
ونظرت في لوعة ناحية الشهاب الذي وقف عند حافة الخاتون رافعاً الجمجمة بكلتا كفيه عالياً و..
ووثب قلبي من بين أضلعي والشهاب يلقيها بكل ما أوتي من قوة وبلا تردد....
في الماء ..
وأمام عيناي غاصت جمجمتي الذهبية في المحيط ..
وردد المحيط صدى صرختي الملتاعة ..

***

لا شيء سوى الصمت ..
هذا هو ما تحول إليه المشهد الذي كان ملتهباً منذ لحظات..
الشهاب يحاول أن يستجمع أنفاسه المتلاحقة جوار الحافة...
حميد جاء يجر قدمه جراً بعد صراعي معه وحينما ألقى نظرة على الموقف سقط على ظهره وهو يتنفس الصعداء ...
رشيد جاء وهو يحتضن تنتن وتنتون والدهشة والذهول لا يفارقان سحنته..
البحارة لا يفهمون حرفاً مما يجري ..
ساعد سبع البحار المحيط بخاصرتي يتراخى ببطء ويده الأخرى تفلت ساعدي الذي يحمل السيف ..

لا أستطيع أن أصف شعوري بدقة بعد أن عادت قدماي تلامس سطح الخاتون ..

خواء ..

لا أدري ما الذي ينبغي علي فعله ..

كأنني طفل تركه أبوه يواجه موقفاً أكبر منه وهو الأن في حيص بيص ..

لم يعد للحقد والغضب وسائر المشاعر التي استولت على

وجداني أي وجود.. فجأة هدأ كل شيء مع غياب الجمجمة الذهبية في قاع المحيط ..

هل حقاً كنت واقعاً تحت تأثير شيء ما أم أنني هدأت حينما تأكدت من سلامة نية الشهاب وحميد لما ألقوا الجمجمة في الماء.. لن يسرق أحمق جمجمة ذهبية ليلقيها في اليم ..

لقد سيطرت عليهما فكرة الاستحواذ الشيطاني هذه و...

لكن لما المكابرة يا سندباد ؟..

أنت لم تكن أنت ..

وأنت تدرك هذا جيداً ..

الأن عليك أن تتوارى عن الجميع ..

لتختلي بنفسك ولتحاول أن تتوضأ وتصلي ركعتين لخالقك فتهدأ بعدها نفسك ..

لقد أنقذني الرفاق من كيان شرير لا أدري كنهه ولا أحد منهم ينتظر مني كلمة شكر أو اعتذار ..

أنهم متفهمون فأنت لم تكن أنت..
لقد قاتلت حميد أعز أصحابي وكدت أفتك بالشهاب الذي علمني ركوب البحر ..
كل هذا كان كثير .. كثيراً جداً ...
أكثر مما يحتمل ..

***

لكن ترى هل هذه هي النهاية ؟

***

جلست في قمرتي أقلب في سجلاتي وأدون بعض الملاحظات حينما طرق الباب ..
ـ أدخل يا حميد ...
بالفعل دخل الأخير وهذا لا يعود لكوني عرافاً.. فقط أنا أعرف طرقته..
كان يبتسم في ود لكنني كنت من داخلي أتمزق كلما تذكرت ما كان وما جرى ..
ولم يكن وحده كان الشهاب يقف خلفه :
ـ سندباد إلى متى ستختلي بنفسك الخاتون لن تقود نفسها بنفسها ...
انشغلت بالسجلات متحاشياً النظر إليهما وقلت للشهاب:
ـ لم يكن ما مر سهلاً ..
قال حميد :
ـ ومنذ متى ونحن نمر بمغامرات سهلة.؟..

أزحت سجلاتي جانباً وجذبت نفس عميق ثم أطلقت زفرة حارة أودعتها كل انفعالاتي ..

ثم قلت في شرود :

ـ لا أدري ..لماذا يحدث هذا لي فقط .. لماذا يبدأ بي أكلة لحوم البشر دوناً عن سائر البحارة؟ ولماذا تختارني الجمجمة الشيطانية دوناً عن سائر البحارة وتقرر الاستحواذ على عقلي؟

تنحنح حميد وهو يداري تبسمه فنظرت له في غل جعله يقول في سرعة :

ـ بالنسبة لأكلة البشر لعلك كنت تبدو لهم أسمن من بقية البحارة .

نظرت له في سماجة على حين عاجلني الشهاب بقوله :

ـ أما بالنسبة لجمجمة الشيطان الذهبية ..فاختيارها لك لأنك الربان .. ولو سيطرت عليك فقد سيطرت على كل من تحتك .

ابتسمت لهما في غيظ قائلاً :

ـ واضح أن كل المصائب التي تنصب على رأسي لها تبريراتها المناسبة حتى لو سقط قلع من قلاع الخاتون فوق رأسي فلن أندهش فربما كان السر في جاذبيتي الشديدة أو أي هراء أخر .

لكمني الشهاب في كتفي كعادته السمجة وهو يقول في مرح :

ـ المهم أن تلك الجمجمة المشؤمة قد ذهبت إلى غير رجعة سلمت لنا يا سندباد .

هنا ..
وهنا فقط أضاء عقلي المكدود بشموس عديدة...
وذكريات قريبة ..

***

ـ جماعة الجمجمة ليسوا قراصنة عاديين ..
ـ إنهم جماعة شيطانية ...
ـ إنهم يفتكون بالبحارة تعسي الحظ عن طريق جماجم نارية يقذفونها على المراكب والسفن فتشتعل فيها النيران ...

***

هنا شق شيئاً ما الهواء بجواري وارتطم بصاري الخاتون ..
بعدها لم أرى سوى الشرر يتطاير ولم أسمع سوى الرعد يصم أذنيا ...

***

قذيفة ثانية تمرق من جوارنا لكنها تخطئ الهدف وتغوص في قلب المحيط ..

***

رشيد يحمل تنتن وتنتون إلى قاع السفينة ويغلق الكوة من وراءه بإحكام قبل أن تهوى القذيفة الثالثة فوق الكوة وتتناثر الشظايا في كل مكان ...

***

ومرة رابعة تشق الهواء قذيفة أنفاط وترتج الخاتون ويفقد البعض توازنه ...

***

وأمام عيني المذهولتين كشف جزء من الخرقة ليريني إياه :

ـ سندباد ...هذا ما تخلف من أنفاط القراصنة ..

***

وانتفضت قائماً مثل الزنبرك وصحت مثل الديك :

ـ يا إلهي الذي في السماء .. هناك قذيفتان أصابتا الخاتون سوى القذيفة التي أصابت الصاري ..

قال الشهاب في غباء :

ـ وماذا في هذا؟

صاح حميد وقد فهم :

ـ رباه .. هذا يعني أن ...

وقطع عبارته وضرب جبهته بكفه.. نظرت للشهاب موضحاً في مرارة :

- لقد رمانا القراصنة بأربع قذائف .. واحدة غاصت في المحيط، وواحدة استقرت في الصاري، وواحدة كادت تفتك برشيد وتنتن وتنتون عند الكوة الموصلة للقاع، وواحدة أصابت مؤخرة السفينة وجعلتها ترتج بعنف، كان هناك ثلاث قذائف بثلاث جماجم أصابوا الخاتون، تخلصنا

من واحدة وبقت جمجمتين طليقتين الأن على سطح الخاتون جمجمتين سقطتا من حساباتنا وهما الأن تعبثان في عقل أحدهم .

***

4ـ جمجمة وطبيب وطاهي

لابد من إيجاد الجمجمتين ..

نظرت لحميد والشهاب قائلاً :

- سنقسم أنفسنا .. سأذهب أنا مع سبع البحار لتفقد الكوة التي أصابتها القذيفة وأنتما تذهبان لتفقد مؤخرة السفينة ومن يجدها يتخلص منها فوراً في الماء ..تذكرا ..قد تكون مع أحدهم ..وقد تكون مسيطرة عليه، وبشدة ..كونا حذرين ولابد أن يبقى الأمر سراً حتى لا يأخذ أحداً حذره ..

نظر لي حميد في غيظ قائلاً :

ـ تذهب أنت في حماية سبع البحار وتتركني لأحمي الشهاب !

قلت له في عجلة :

- لا تبتئس يا حميد ..إنها مجرد جمجمة ..
- إذن ما حاجتك لسبع البحار ؟..
- لأن لي سابقة مع تلك الجمجمة ..وأريد شخصاً قوياً يسيطر علي في حالة ما إذا وقعت تحت تأثيرها مرة أخرى ..

***

أنا وسبع البحار ..

العملاق الأبنوسي الذي يحمل قلب طفل وعضلات فيل، والخواطر السوداء التي تتصارع في عقلي.. رباه ماذا لو سيطرت تلك الجمجمة على عقل سبع البحار؟

لا أريد الاسترسال في هذا..

لندعو الله أن نعثر عليها سريعاً قبل أن تعثر هي على أحدهم.

ها هي الكوة المهشمة وأثار القذيفة التي لم تنمحي بعد ..

هناك ثقب ضخم في الكوة التي توصل لقاع المركب أحدثته قذيفة القراصنة ..

ثقب يسمح بعبور جمجمة ذهبية لقاع الخاتون ..

أخذنا نجوب القاع ونفرغ الصناديق الخشبية المليئة بالغلال والخضروات.. نبحث بينها عن شيء كريه ابتليت به الخاتون..

ومرت ساعة كاملة دون نتائج تذكر ..

نظرت لسبع البحار وقلت وأنا ألهث :

- لا فائدة .. لاشك أنها وقعت في يد أحد البحارة وتعمد إخفائها في مكان ما لا يعلمه أحد .

ثم أنني ضربت جبهتي بكفي قائلاً في غيظ :

- لكن هذه سفينتي .. وأنا أحفظ كل شبر فيها .

كان سبع البحار كعادته قليل الكلام والتعليقات وقد أشعرني هذا بالحنق أكثر ..

أريد شخصا يفكر معي لقد اخترت القوة المفرطة وتنازلت عن العقل حينما تركت حميد مع الشهاب ..
هنا وثبت فكرة إلى رأسي ...

***

حميد والشهاب يتفقدان مؤخرة السفينة ..
الشهاب يداعب لحيته وهو يقول في إرهاق :

- هذا سخف ..هل تتوقع أن تبقى جمجمة ذهبية ملقاة في إهمال على ظهر مركب ..مؤكد وقعت في يد أحدهم ..

قال حميد وهو يفحص أثار قذيفة الأنفاط :

- من الممكن أن تكون قد ارتدت خارج السفينة وغاصت مع أختيها في قلب المحيط .
- هذا افتراض مريح للدماغ ..لكن علينا توقع الافتراض الأسوأ.. أنها مع أحدهم .
- هل سنفتش كل البحارة.. مؤكد من حصل عليها لن يحتفظ بها في سرواله ..سيخفيها عن الأعين ..

داعب الشهاب لحيته الثلجية عدة مرات كناية عن التفكير العميق قبل أن يقول :
ـ إذن ننتظر حتى تظهر على بعض البحارة علامات الاستحواذ .
لم يكن حميد يدر حقاً هل هذا هو التصرف السليم ؟

ماذا يقدر أن يفعل أحاد البحارة لو سيطرت عليه تلك الجمجمة؟
في حالة السندباد كان الخطر محققاً لأنه الربان أما في حالة سيطرتها على بعض البحارة فلن يعدو الأمر سوى محاولات تخريب محدودة وسيقبض على المخرب وينكشف أمره ..

- لكن ماذا لو أوعزت إليه إغراق الخاتون بمن فيها ؟..

تساءل حميد بوجه ممتقع فعقد الشهاب حاجبية الكثين وصمت برهة ثم عادت لحيته ترتعش بالكلمات التالية :

- لا أظن أن الجمجمة تسعى لذلك.. إنها تسعى للسيطرة على الخاتون لصالح القراصنة والقراصنة لن يستفيدوا شيئاً من سفينة غارقة .

نعم .. كان الشهاب محقاً في هذا لأبعد الحدود وإن كان بعيداً كل البعد عن الحكمة في القرار الذي اتخذه مع حميد ..
ولم يكن أحدهم يتصور ما سيترتب عليه ذلك الانتظار لعلامات الاستحواذ أن تظهر على أحد البحارة..
إن أياماً عصيبة تنتظر الخاتون ..

***

صحت في انفعال :

- الطبيب رشيد ..ذلك الوغد كان أقرب الرجال من القذيفة لأنها أطلقت عليه عند القاع ..

هز سبع البحار رأسه مؤيداً ولم يعلق ولم ننتظر ..

سرعان ما انطلقنا ناحية مخدع الطبيب رشيد ..
أخ! من كان يتوقع ؟..
أنت يا رشيد! أنت !..
وقفنا نتأمل مخدعه الذي امتلأ بالأشياء الغريبة ..
أواني زجاجية مليئة بسوائل غريبة حمراء وخضراء هياكل أسماك غريبة الشكل معلقة على بعض الجدران ..
أنا الذي مكنته من كل ذلك، واليوم.. تدفع الخاتون الثمن ..
ثمن تساهلي ورقة قلبي مع رفاق البحر !
كان رشيد عاكفاً على فحص شيء ما في إناء زجاجي على منضدة ولما دخلنا عليه التفت إلينا في حدة فرأيناه يضع على عينيه منظارين غريبى الشكل قام بتثبيتهما بعصابة جلدية حول رأسه ..

- سندباد لقد أفزعتني ..

قلت له وأنا أقترب منه في حذر متأملاً هيئته الغريبة :

- الحقيقة أنك أنت الذي أفزعتنا بتلك المناظير الغريبة التي تضعها على وجهك ..

أشار رشيد بكفه قائلاً كأنما يخاطب أجهل أهل الأرض :

- سندباد أنا لا أتدخل في سياستك لسفينتك فأرجوك لا تتدخل في مهنتي التي لا تفقه عنها شيئاً ..

هذا هو رشيد الذي أعرفه، مثال الأنفة والكبرياء والذي يعتبرني مجرد ربان همجي لا يقدر مجهوداته لصالح العلم

وفي سبيل إسعاد البشرية، لكنني كنت استمتع بمضايقته جداً
فبرغم جفاءه لي فهو كغالب من تحملهم الخاتون طيب القلب حقا..
وبالتالي هو سهل المنال جداً لو سقط أسيراً لتلكم الجمجمة ..
قلت له وأنا أعبث ببعض الهياكل المعلقة غير عابئ باعتراضاته:

- هلا أخبرتنا ماذا تصنع بتلك المناظير الغريبة ؟.. من باب العلم الذي نجهله .

خلع منظاريه بيمينه في تأفف.. ثم قال وهو يضع كفه اليسرى في خاصرته :

- هذه مناظير تكبر الأشياء عشرات المرات لهذا أراكم الأن كابوس حي في حجم الخاتون ذاتها ..

قلت وأنا أحاول أن أشرآب بعنقي لأرى ما يفحصه :
ـ وما الذي تفحصه هنالك ؟..
ـ أحضر بعض المساحيق المستخلصة من أعشاب البحر تساعد على النوم ..
هل أصارحه الأن ؟
لاشك أنه سينكر ..
لكنها لو كانت معه حقاً فلن تغادر حجرته الأثيرة.. نظرت لسبع البحار كي يستعد لأى مفاجأة من رشيد الذي تسيطر عليه جمجمة الشيطان ثم التفت إلى الأخير وقلت له بلهجة حازمة :
ـ والأن لا داعي للف والدوران يا رشيد ..أين الجمجمة الذهبية ؟..

***

- تباً ..ألم يلقها الشهاب أمام عينيك في المحيط ..؟..

كان رشيد أحمر الوجه كالطماطم ..

هو لا يحتمل التشكيك في ذمته ولم يكن مستعداً لتلقي مثل تلك الإهانة، ولم يتوقعها ..

قلت له وأنا أنظر له بثبات :

- هناك واحدة أخرى ..ألقاها القراصنة على الكوة الموصلة للقاع ..

وملت عليه مردفاً :

- حيث كنت تختبئ ..

بدأت عليه علامات التذكر ..

لابد أنها تسيطر عليه وبشدة..

سأخلصك منها سريعاً فقط كن متعاوناً يا رشيد ...

- لقد مكثت في القاع مع تنتن وتنتون حتى انتهت غارة القراصنة ولما انقشع الغبار خرجنا فرحين بهزيمة القراصنة ونجاة الخاتون ..لم يكن هناك أي أثر لجمجمة ذهبية أخرى .

قلت له في غيظ :

- نحن فتشنا القاع جيداً ..لم نجد شيئاً ..

قال رشيد في تأفف :

- هذا ما لدي يا سندباد وإن لم تكن تصدق فهاك حجرتي أمامك فتشها كما يحلو لك فقط إياكم أن تمسوا أشيائي بسوء ..

تباً ..

لو كانت مع رشيد فلن تكون خارج حجرته ولن يعرض علي تفتيشها بكل بساطة ..

الجمجمة سقطت في القاع وهناك من حصل عليها بعد ...

من الذي يتردد دائماً على القاع ؟..

هل يمكن أن تكون قد وقعت في يد تنتن وتنتون ؟..

سألت رشيد عن هذا فأكد لي أن تنتن وتنتون لم يفارقاه حتى غادروا القاع ..

ساعدني يا إلهي هذه الجمجمة جعلتنا نشك حتى في أصابع أقدامنا..

- والأن يا سندباد هل يمكنك أن تبحث عن جمجمتك وتتركني أكمل عملي ..

هممت أن انصرف لولا أن حانت مني التفاتة ناحية ذلك المسحوق في الإناء الزجاجي الموضوع على المنضدة ..

- رشيد هل تعاني من الأرق هذه الأيام ؟..
- لا ..لكن هذا المسحوق طلبه مني طاهي السفينة إنه مسكين يعاني من النوم المتقطع والذي يفقده التركيز بالنهار ..

نظرت للكمية الضخمة متشككاً ..

قلت :

- لكن هذه الكمية الضخمة يمكنها أن تنوم عشيرة من الحيتان و...

وقطعت عبارتي فجأة وأنا امسك بتلابيب رشيد صائحاً :

- رباه الطاهي ..هو أكثر المترددين على القاع ..لهذا طلب منك ذلك المسحوق المنوم ..

قال وهو ينظر لقبضتي التي تمسك بتلابيبه نظرة من يتعرض لإهانة لا تغتفر :

- وما علاقة المسحوق المنوم والطاهي المسكين بجمجمتك الذهبية ..؟

- الطاهي وجد الجمجمة يا أحمق.. وهي التي تحركه ..لابد أنها طلبت منه تخدير البحارة عن طريق وضع المنوم في الطعام .. حتى يتسنى للقراصنة السيطرة عليها..

هنا قرر سبع البحار أن يتكلم أخيراً ..

قال في انبهار :

- أنت عبقري يا سيدي ..

صاح رشيد معترضاً وهو يلوح بكفه في وجه سبع البحار :

- مهلاً يا خرتيت البحر.. هذه مجرد تكهنات.. بناها السندباد على خرافة الجمجمة التي تسيطر على العقول ..

والتفت إلي مردفاً :

- وهو الأن يجوب الخاتون ويلقي بالتهم يميناً وشمالاً على الأبرياء..

عقدت ساعدي أمام صدري قائلاً ببرود :

- الأمر أسهل من ذلك .. لنترك الطاهي يحصل على المسحوق المنوم ولننظر ماذا يصنع ..

صمت رشيد وقد ألجمته فكرتي.. ثم إنه عاد ليقول مغمغماً:

- كما يحلو لك أيها الربان ..كما يحلو لك ...

وابتسمت في ثقة ..

طبعاً كما يحلو لي أيها الطبيب.. وسرحت بخواطري بعيداً.. إلى القاع حيث يطبخ لنا طاهي قد سيطرت عليه جمجمة ذهبية.

***

طاهي السفينة لابد أن يكون بديناً مترهلاً يسبقه كرشه دائماً بيومين ...

لم أتردد لحظة حينما وقعت عيني عليه أول مرة وقلت وأنا أدون أسمه في سجل الخاتون :

- ستعمل طاهياً ..

قال معترضاً وهو يلهث من أثر الشحم واللحم :

- لكنني لا أفقه شيئاً في الطهي يا ريس سندباد ..

نظرت إليه متشككاً وقلت :

- لا تفهم في الطهي !! كيف اكتسبت كل هذا القدر من الشحم إذن ..

ابتسم في بلاهة قائلاً :

- إنها أمي يا ريس سندباد ..طاهية ممتازة ..

فكرت قليلاً ثم قلت :

- حسناً أذهب أنت وارسل لنا أمك..
- لكنها امرأة يا سيدي ..ماذا ستصنع وسط الرجال ..

هنا ارتفع حاجبي في دهشة :

- أأمك امرأة ؟!..

***

طاهي الخاتون المترهل طفولي الوجه الذي يمكنه أن يصدق أي شيء تقوله له ..

الفتى الساذج ألعوبة الخاتون في أوقات الفراغ القاتلة.. ترى ماذا صنعت منه الجمجمة الشيطانية ؟

أتخيله بعين الخيال يهبط للقاع ويكافح لحشر جسده الضخم بين صناديق الطعام هنا تتعثر قدمه في شيء ..

يكافح كي ينحني لينظر و...

وتجد الجمجمة الذهبية ضالتها ..

جمجمة ماكرة تحسن استغلال من يقع تحت سيطرتها ..

سيحتفظ بها في مطبخ الخاتون وحينما يجن الليل تبدأ الإيحاءات الشيطانية ..

ها هو ذا يتحرك حاملاً المسحوق المنوم بعد أن أخذه من رشيد..

ها هو ذا يدخل المطبخ ويغلق بابه خلفه ويستدير ناحية القدر الضخم الذي يحوي العشاء للبحارة ..
يكشف الغطاء الضخم..
ويرفع الكيس المليء بالمسحوق ليفرغه في القدر ..
هنا يتحطم الباب ويثب حميد والشهاب عليه ويكبلان حركته فيسقط الكيس على الأرض ويتناثر المسحوق..
تأملت الباب المحطم في حسرة ثم عبرته قائلاً :

- سأخصم ثمن هذا الباب من رواتبكم ..

ووقفت أتأمل الطاهي الذي يحاول التملص من كلابات الشهاب وحميد وقد اكتسى وجهه بتعبير شرس لا يتناسب قط مع طبيعته الطفولية التي نعرفها ..
رباه ..
هل كانت سحنتي شيطانية هكذا حينما كانت الجمجمة مستحوذة علي..
ازدرت لعابي ثم قلت :

- والأن.. ستخبرنا أين الجمجمة أو أجعلك تجرع قدر الحساء كله حتى تنفلق أمعائك ...

هنا جاء رده سريعاً وغير متوقعاً ...
دار بجسده الضخم حول نفسه فوجدت الشهاب وحميد يطيران في الهواء ويرتطما ببعض القدور الفارغة فوق رف خشبي وتتهاوى القدور فوق جسديهما ..

ثم إنه تناول سكيناً مرعباً من أحد الأرفف ولوح به في وجهي صارخاً :

- لن يمسها أحد بسوء ..

وبدون تردد قذف السكين ناحيتي ..

***

5- جمجمة نوبتجية!

لم يكن يصعب على أي سندباد يحترم نفسه تفادي سكين مطبخ..
الصعوبة الحقيقية كانت في إيقاف الطاهي ...
لقد قذف سكينه الذي استقر في الجدار بدلاً من أن يستقر في جسدي لأني طبعاً لم أكن هناك ..
والتفت يفرغ أحد القدور متوسطة الحجم فتهاوت منه الجمجمة الذهبية .. التقطها واندفع خارج المطبخ وهو يرغي ويزبد ..
نفس حالتي حينما كدت أفتك بالشهاب ..
ووثبت ناحيته لكنني ارتطمت بكرشه وحدث ما يحدث لك لو ارتطمت بكتلة من الدهن .. أرتد جسدي في عنف ..
وفكرت ببال رائق وجسدي يطير في الهواء أن هذا الوغد يحسن استعمال كرشه حقاً في مواجهة الخصوم ووو..
وكان حميد والشهاب يلملمان أطرافهما المبعثرة ويستعدان للقيام من سقطتهما حينما ارتطمت بهما وتكومت أجسادنا على أرض المطبخ ونحن نئن..
هنا سد سبع البحار عليه الطريق ..
أخر ما لدينا من وسائل لمنع هذا الطوفان من الشحم واللحم المتحرك ..
ـ سبع البحار ـ كذا هتف ـ لا تقتله أرجوك حتى نجد من يصنع لنا العشاء.

كنت واثقاً في قدرات سبع البحار لكنني جاهلاً بقدرات من تستحوذ عليه الجمجمة الذهبية ..
لقد رفع الطاهي سابقاً الجمجمة بكلتا يديه ثم قذفها في وجه سبع البحار ...
وانثنى سبع البحار كالطود الذي ينهار وهو يمسك وجهه ..
وكان هذا كافياً للطاهي سابقاً ..
أنحنى يلتقط الجمجمة قبل أن تسقط على الأرض ثم انطلق متجاوزا سبع البحار ..
صحت في إحباط وأنا أعتدل من سقطتي :
ـ مرحى يا سبع البحار تعال أجلس هنا بجوار إخوتك ...
وانطلقت خلف الطاهي متجاوزاً سبع البحار وأنا أسب وأسخط.. كان الوغد يتحرك في خفة لا تتناسب مع حجمه لكنه مهما بلغ فلن يباريني في العدو أبداً ..
أدركت قدمه عند السلم الموصل للسطح فوثبت أتعلق بها بكل قوتي وأنا أضغط على أسناني صائحاً :
ـ أين تظن نفسك ذاهباً يا أبله ؟
هنا تلقيت ركلة عاتية في وجهي من ساقه الحرة فتركت قدمه مرغماً..
وشعرت بالنجوم تتلألأ من حولي وأنا أتحسس وجهي الذي شوهه الوغد.. وحينما استعادت عيني قدرتها على تمييز الأشياء كان الوغد قد اختفى..

***

على سطح الخاتون وقفنا نتأمل المشهد التالي...
كنت قد صعدت للسطح خلف الطاهي ولحق بي حميد والشهاب وجاء سبع البحار بوجه دامي وقد أزمع تحطيم عظام الطاهي لولا أنني أوقفته ..
هو برغم ما كان لا يتصرف بطبيعته ...
كنا نتأمله واقفاً عند الحافة محتضناً الجمجمة وعيناه تدوران في محجريهما بجنون وكان اللعاب قد بدأ يسيل من بين شدقيه وسمعته يقول كأنما يهذي :
ـ لو اقتربتم مني سأقفز في الماء .. أقسم أن أفعل...
صاح الشهاب وهو يتحسس عظامه المهشمة :
ـ هل تشك في أننا لن نضحي بك في سبيل الخلاص من تلك الجمجمة ...
نظر حميد للشهاب في دهشة وهو يهمس :
ـ وماذنب الطاهي المسكين إنه ليس مسئولاً عن أفعاله ..
قلت وأنا أضغط على أسناني :
ـ حياة واحد في مقابل حياة الجماعة ..ماذا تتوقع يا حميد .
ثم نظرت جهة الطاهي وصحت في غل :
ـ أفعلها من أجلنا.. وعزاءنا الوحيد أنك ستأخذ معك تلك اللعينة .
هنا شق الهواء شيء ما وسمعنا شهقة ...

كان الطاهي يمسك عنقه وينتزع منه سهم صغير ينتهي بريشة! ثم إنه نظر ناحيتنا وقال شيئاً ما قبل أن يتكوم مثل الجوال بجوار الحافة ...
وبجواره استقرت الجمجمة وكأنما أسقط في يدها أن رجلها قد خرج عن سيطرتها ...
التفتنا إلى الجهة التي جاء منها السهم فرأينا رشيد قادماً وهو يحمل أسطوانة من البوص المجوف من ذلك النوع الذي يستخدمه البدائيون في قذف السهام عن طريق النفخ. لوح بها وهو ينحني على جسد الطاهي قائلاً :
ـ لقد خدرته فحسب ..
ثم أنه التقط الجمجمة وتأملها برهة ثم قذفها ناحية الماء ...
ومضت فترة صمت ونحن لا نصدق أن الموقف مر بسلام دون خسائر ..
قال رشيد وهو يطرق إلى الأرض :
ـ قد لا يكون الأمر مفهوماً بالنسبة إلى .. لكنني بالرغم من ذلك أشعر بسعادة لأننا تخلصنا من تلك الجمجمة .
ربت على عاتقه في حرارة ثم أشرت لجسد الطاهي المسجى وسألته :
ـ متى سيفيق ؟..
ـ لو لم يفق في خلال يومين يمكننا أن نشعر ساعتها بالقلق !!
بللت شفتي بلساني قائلاً :
ـ لعلك لو قتلته لكان أرحم به وبنا ..

والتفت مواجها حميد والشهاب وسبع البحار قائلاً :
ـ تخلصنا من أثنان وبقت واحدة ...
تبادل حميد والشهاب النظرات ..
وتنحنح حميد :
ـ سنجدها بإذن الله يا سندباد ..تأكد من ذلك ...
لكن شيئاً ما بداخلي كان يشعرني أن الجمجمة الأخيرة لن تكون مثل أخواتها ...
لأنها ببساطة.. أمل القراصنة الأخير..

***

قضيت الساعات التالية في فحص الخاتون شبراً شبراً ...
لن ندع مجالاً للصدف..
وبدأت بمتعلقات أصحابي قبل البحارة فاحتمالات أن تكون مع أحدهم دون أن يدري واردة بل فتشت قمرتي أمام حميد والشهاب مرة ومرة بعدها جاء دور مخادع البحارة ..تسألون عن الطاهي البدين ؟..
لقد أفاق أخيراً بعد أن كاد يقتلنا جوعاً ..
وعاد يتضلع بدوره الهام في الخاتون ولم أنس دس تنتن وتنتون عليه بدعوى مساعدته لكن في الحقيقة هم كانوا هنالك لمراقبته .. الأطفال والمراهقين هم خير من يقوم بمهمة التجسس والوشاية، بدافع الشهوة الطفولية العبثية لإيذاء الأخرين ..

وقبل أن أدخل قمرتي لأرتاح سألت الشهاب عن نوبتجية المساء فأخرج لفافة ورق فردها أمامي وأخذ يقرأ في انتشاء :

- أصلان و نعمان وحسان ورشدان وفضلان ..

ابتسمت في رضا وأنا أتأمل رجال النوبتجية عيون الخاتون الساهرة قائلاً :

ـ عظيم ..ستكون نونية ناجحة ...لننعم ببعض الراحة قبيل صلاة الفجر ...

كنت أظن أنني أسد كل الثغرات وأحكم الخناق حول الجمجمة الأخيرة .. وكنت واهماً كالعادة..

واهماً ..

***

على أضواء المشاعل اجتمعوا ..

الخمسة النوبتجية يقفون بجوار الحافة وأضواء المشاعل تنعكس على صفحة الماء ..

قال أولهم (لعله أصلان):

- اليوم فرصتنا ..

وقال ثانيهم (يبدو أنه نعمان):

- السندباد وزبانيته سلمونا ذقونهم بمحض إرادتهم ..

همس ثالثهم (لو أخذنا بالترتيب فسيكون حسان):

- كم رجلاً معنا ؟..

قال رابعهم (أكيد الأذكياء خمنوا أنه رشدان) :

- أنا أضمن ولاء نصف البحارة ..تقريباً ..

تساءل خامسهم (فليقطع ذراعي إن لم يكن فضلان) :

- والنصف الأخر؟..

ضحكة شرسة من أصلان الذي تبدو عليه سمات القائد ثم :

- سيكونون مع من غلب...

ودوت خمس ضحكات شرسة ..

- لنخرج الأمانة..

قالها أصلان وهو يثنى جذعه خارج السفينة ويجذب إليه أحد الحبال المتصلة بالأشرعة وطرفه الأخر مدلى خارج السفينة وظل يجذب الطرف الأخر .. ويجذب .. ويجذب ..

ثم ظهر أخيراً جراب من جلد كان مربوطاً بإحكام بطرف الحبل..

واستدار أصلان ليفرغ الجراب بين يدي رفاقه فتعلوا أصوات أنفاسهم المبهورة وازدرد أحدهم ريقه (وهو لن يخرج عن كونه أحد أربعة إما نعمان أو حسان أو رشدان أو فضلان والله أعلم) ثم قال بصوت مبحوح :

- من أين أتتك تلك الفكرة الجهنمية يا أصلان؟..

فيبتسم أصلان مكشراً عن أنيابه ثم ببطء يرفع كفه مشيراً ً بسبابته للشيء الذي استقر بينهم ..

- هي ألهمتني..

وعلى ضوء المشاعل توهجت الجمجمة الذهبية الأخيرة ...

***

وحينما اقترب وقت الصبح خرج الشهاب كعادته ليؤذن فوق سطح الخاتون الأذان الأول للفجر ..

تنسم هواء الفجر النقي ثم تمطى وألقى نظرة ناحية رجال النوبتجية الخمسة ورفع كفيه ليؤذن للفجر و ...

- تباً ..أين ذهب هؤلاء الأوغاد .؟..

لم يكن هناك أحد على السطح أه لو علم السندباد بذلك..

واستدار مزمعاً التوجه لقمرة السندباد لكن نصلاً حاداً انغرس طرفه في عنقه فلم يستطع التحرك قيد أنملة وارتفعت عيناه في ذعر فطالعه وجه رشدان وهو يبتسم في جشع :

- إلى أين أيها العجوز؟

***

نثر حميد الماء البارد على وجهه وشعره ليفيق من أثر النوم.. ثم رفع رأسه وهزها يميناً ويساراً كي يتأكد أنها مازالت تعمل بكفاءة..

جذب نفساً عميقاً ليملأ رئتيه بهواء الصبح النقي وهو يتساءل لماذا تأخر أذان الشهاب؟ هل غلبه النوم ؟ أم فاضت روحه أخيراً .؟..

هنا حجب عنه الهواء جسد ضخم فرفع طرفه ليرى وجهه فتلقى ضربة عاتية دارت لها رأسه ...

وترنح للحظات وهو يرى صورة مشوشة لفضلان يمسح
الدم عن قبضة معدنية في يده ثم ...
انسدل ستار مظلم أمام عينيه ...
أما سبع البحار فكان له ترتيب أخر ونصيب أوفر...
احتاج الأمر أن يقوم نعمان وحسان ورشدان وفضلان
بإلقاء شباك الصيد فوق رأسه وهو يتجه ليعتلي الصاري
ليؤذن للأذان الثاني ..
فتهاوى من فوره تحت ثقلها وبدأ الحفل حول جسده الضخم
المكبل بالشباك .. لعلهم ظلوا ساعة كاملة يضربونه حتى خمدت حركته تماماً ..
لقد تهاوت الأركان الثلاثة التي يعتمد عليها السندباد ...
وجاء أصلان وهو يحمل الجمجمة الذهبية تحت إبطه وتبادل
معهم النظرات المنتصرة ..
وارتفعت خمس قبضات مضمومات في الهواء و خمس صيحات إلى عنان السماء:

- حرية.....حرية ...

***

6- جمجمة ثورية!

حرية .. حرية ...

***

أين حميد ؟.. أين الشهاب ؟.. سبع البحاااااار هل تسمعني ..؟..

أين البحارة التعساء ؟!

وقفت ألهث وقد بح صوتي من النداء..

رفعت طرفي للسماء فرأيتها سوداء قاتمة فخفضت بصري إلى صفحة الماء ..كانت حمراء قانية ..

هنا شعرت بالكف الباردة توضع على كتفي .. التفت ..

وانحبست صرخة مريعة في حلقى لكنها دوت في أعماقى ...

- لم يبق غيرك يا سندباد ....

رباه هذا غير حقيقي كيف تتكلم جمجمة بلا لسان وشفتين ؟

هذا حلم بل هو كابوس كا.....

هنا تحررت الصرخة من حلقي .. وانتفض جسدي في الفراش وأنا أشهق..

- رباه ...

واعتدلت في حدة جالساً على طرف الفراش وصدري يعلو ويهبط.. تباً للجمجمة اللعينة التي اقتحمت عالمي حتى أحلامي..

تساءلت بصدر منقبض: هل كان ما مضى كابوس أم نذير سوء؟..

تعوذت وتفلت عن يساري، ثم نهضت مترنحاً إلى الباب وتحسست يدي المقبض البارد و...
المقبض لا يستجيب، تباً لقد أصلحته منذ شهر تقريباً ..
شعرت بالحنق يعصف بي أين هؤلاء الحمقى بالخارج ليفتح لي أحدكم ...
أين الشهاب، أين حميد، أين سبع الـ...
رباه ..
ألا يذكركم هذا بشيء ..

***

الأن يجتمع البحارة على أمر جلل ..
لقد رحل السندباد ورحلت أيامه أو هكذا يدعي بعضهم ..
صاح أصلان وهو يلوح بقبضته في الهواء كدأب الثوريين:
ـ لقد عملنا لسنوات طويلة على سطح الخاتون ..تحت قيادة ذلك الطاغية الذي صدع رؤوسنا بالحديث عن أسطورته المزعومة، وكأننا لا شيء إلى جواره ..
ارتفعت الصيحات المؤيدة والمزيد من القبضات المضمومة إلى جانب بعض الهمهمات المعترضة على استحياء..
وأكمل أصلان :
ـ نحن من صنعنا السندباد ..وقد جاء الوقت الذي تتحرر الخاتون من نير ذلك الطاغية المستبد ..

كان رشيد واقفاً بين البحارة يهرش رأسه مفكراً ..
لقد استيقظ على الجلبة التي أحدثها البحارة الثائرون وكان ما يزال يفرك عينيه غير مصدقاً لما يجري، ثم قرر أخيراً أن يرفع كفه طالباً الكلمة ..صاح أصلان :

- هذا هو الطبيب رشيد أحد ضحايا المستبد يطلب الكلمة ..

وأشار له فتقدم وتنحنح قليلاً ثم رفع رأسه وقال :

- حقاً أنا لا أفهم ..

وقطع عبارته ليصيح في غل وهو يثب على أصلان :

- مستبد من يا حمقى؟!..

كان يطلق صرخة قتالية حادة وهو يهجم على أصلان، لكنها انقلبت إلى صيحة ذعر حينما تكالب عليه المؤيدون، وانهالت عليه الصفعات من كل حدب وصوب مع سيل من التهم ..

- لا تفلتوه ..إنه من فلول رجال السندباد!..
- ذلك الطبيب إنه أحد المتسببين في تدهور صحة البحارة!
- لقد خلع لي ثلاثة ضروس لأنني خالفت مرة أمر من أوامر السندباد !..

ووقف أصلان يتبادل النظرات مع رجاله الخلص حسان ونعمان ورشدان وفضلان.. قبل أن يهمس من بين أسنانه :

- رشيد.. لقد نسينا أمرك تماماً..

قال حسان وهو يبتسم بانتشاء :

- مازال القاع يسع المزيد من المؤيدين للسندباد ..هي هي ..

وداعب رشدان شاربه وهو يقول :

- هذا لو تبقى منه شيء أصلاً..

هنا رفع أصلان كفه وصاح في البحارة كي يتركوا شيئاً من رشيد يصلح للسجن..

أخيراً انزاحت الجموع المتكالبة على رشيد الذي تحول إلى ما يشبه الخرقة الدامية، وسرعان ما حمله فضلان ونعمان إلى حيث مثواه الأخير في قاع السفينة ..

وعادت الأعناق تشرئب مرة أخرى إلى محدثها ...

هذه المرة رفع أصلان كفه فإذا بالجمجمة الذهبية تلمع تحت أشعة الشمس ودوت الكلمات الجشعة القاسية :

- هذه أخر جرائم الظلم والاستبداد ..جمجمة من الذهب الخالص كان يحتفظ بها السندباد لنفسه واليوم هي ملك لكل البحارة ..
- هوررراااه ..
- لكن قبل هذا ..لابد أن يلقى الطاغية شر الجزاء ..
- هوررراااه ...ليذهب إلى الجحيم ..

ابتسم أصلان وهو يكشر عن أنيابه قائلاً :

- لقد صارت الكلمة كلمتكم .. والحكم حكمكم..

كانت الفئة التي تعترض على استحياء قد لاذت بالصمت الأبدي بعد أن تبدى لها المصير المحتوم للمخالف..

والفئة التي أصابتها عدوى الثورة هي صاحبة الصوت العالى ..
والقرار قد صدر من تلك الفئة الأعلى صوتاً ..
قرار الإعدام ..

***

قاع الخاتون ...

فتح حميد عينيه وبدأ يتأوى.. ثم تنامى إلى سمعه صوت مألوف ينادي :

- لقد أفاق حميد يا سبع البحار ..

هنا بدأ حميد يستوعب ما حوله ..
كان هناك قيد من السلاسل الحديدية تكبل ذراعيه وقدميه إلى عامود خشبي ضخم، ولم يكن الشهاب أفضل حالاً، أما سبع البحار فكان مطوقاً بأغلظ السلاسل وأوفرها حتى لا يكاد يرى من السلاسل الحديدية ..

- ماذا يحدث بالضبط ؟..

تساءل حميد والصداع يفلق رأسه فصكت أذنيه تنهيدة حسرة من بين شفتي الشهاب وأتاه صوته الواهن :

- إنها ثورة على السندباد..

استعاد حميد ذكرى ما حدث وتذكر فضلان وهو يمسح الدم عن قبضته الحديدية فانتفض جسده في عنف وهو يصيح بالشهاب

- رباه .. ماذا فعلوا بالسندباد ؟

هنا دوت صرخة ألم مريرة وسمع حميد والشهاب صوت نشيج سبع البحار..

تمتم الشهاب :

- إن قلب سبع البحار يتقطع على سيده ..

صاح حميد وهو موشك على الجنون :

- رباه .. ماذا فعلوا بالسندباد ..الأوغاد ..سوف اقتلع قلوبهم من صدورهم ..سوف ..

قاطعه الشهاب في إنهاك :

- كفاك ضجيجاً يا حميد .. لا أحد يعرف يقيناً ماذا جرى للسندباد فقط علينا أن نتعاون لنخرج من هذا المأزق قبل أن ينالوا منه .

عض حميد شفته وهو يجوب ببصره في القاع بحثاً عن بارقة أمل :

- نخرج !! هل لديك أفكار بخصوص هذا أيها الشهاب ... ؟
- ما حدث يحمل بوضوح بصمة الجمجمة اللعينة ...
- ماذا ؟! هل يمكنها السيطرة على أكثر من واحد ..؟..
- يكفي أن تسيطر على أحدهم لكن هذا الواحد من الممكن أن يؤثر في العشرات.. عن طريق ذرع بذرة الشر فيهم ..

وازدرد لعابه مردفاً :

- تلك اللعينة تجيد عملها جيداً وتحسن التخطيط ..وهي دائماً تسبقنا بخطوة وتفاجئنا في كل مرة ...

ضرب حميد رأسه بالعمود الخشبي الذي قيدوه إليه وهو يحاول فى يأس التملص من قيوده :

- هذه المرة هي مسيطرة بالفعل أيها الشهاب.. وقريباً سيصل القراصنة ويستولون على الخاتون ..

هنا تذكر حميد شيئاً ...

القاع يضم أعوان السندباد المخلصين إذن من في الخارج هم بين موالي للثورة ومستسلم لها أو ..

- لعل هناك أمل أيها الشهاب .. لقد نسوا أمر رشيد فيما يبدو أو أهملوا شأنه لأنه مجرد طبيب لا يخشى جانبه ..لنأمل أن يكون رشيد هو رجلنا بالخارج ...

هنا انفتحت الكوة التي في السقف وتهاوى جسد رشيد الدامي متكوماً على الأرض ..

وأغمض حميد عينيه على الأمل الذي تم وأده في لحظة..

***

الأن أفهم ...

الآن أبتعد حثيثاً عن الباب ..

الأن تتنامى إلى مسامعي الصيحات الحيوانية من الحناجر التي كانت يوماً ما تلهج بالثناء علي ..

ـ يسقط الطاغية ...

- الموت للمستبد ...
- حرية ..حرية ..

أصوات أقدام قاسية تقترب من القمرة ..

- حرية ..حرية ..

ووثبت على قراب السيف المعلق إلى جوار فراشي ..

- مزقووووووه .....

وشهرت سيفي في مواجهة باب القمرة و ...

من هؤلاء ؟..

هل هؤلاء هم رجالي الأنجاد ؟..

هل هؤلاء بحارتي الذين خاضوا معي عباب البحر لسنوات وسنوات ؟..

وتيقنت وهم يلتفون من حولي أن ثمة شيء ما ليس طبيعياً في تلك الوجوه الشرسة وتلك الأيادي التي تتناولني من غير اكتراث..

لهذا تراخت قبضتي حول مقبض سيفي ولم أشعر به وهو يسقط تحت الأقدام ..

فقط لمحت من بين الرؤوس التي تكالب علي أصحابها رأس يبتسم في تشف وهو يغمز بعينه و يرفع قبضته عالياً حاملاً شيئاً مألوفاً ..

شيئاً ذهبياً يبتسم في جشع ومكر ..

الرأس هو رأس أصلان أحد أفراد النونية التي عينها لحراسة السفينة ليلاً.. والشيء الذي يحمله كانت هي الجمجمة الذهبية العتيدة لكنها هذه المرة صاحبة اليد الطولى ..

كانت هي وراء كل ذلك من البداية ..
هي التي ألبت علي البحارة ..
وهي التي تحركهم الأن ..
وهم يحملوني الأن للخارج حيث صعدوا بي وأنا مستسلم تماماً بفعل الصدمة أو بفعل اليأس لم أكن أدرى حقيقة ..
فقط كان الصراخ والضجيج والصيحات الوحشية المنتصرة تصم أذني، وتمنيت لو صارحتهم أن أصواتهم مزعجة جداً، لكنني لم أجد الوقت الكافي لأنهم حملوني إلى حافة الخاتون وهم يقهقهون كالسكارى و..
هل سيفعلون ما أظن أنهم سيفعلون أم ...
كان السقوط رائعاً من أعلى لأسفل وشعرت بنشوة عارمة وجسدي يرتطم بالماء ..
أخيراً لم أعد أسمع أصواتهم المزعجة..

***

- هووووررراااه ..
- هووووررراااه ..

المزيد من القبضات المضمومة إلى السماء والصيحات المتهللة و الوجوه السادية المتوحشة .. وجاء الطاهي البدين وهو يلهث حاملاً قنينة ضخمة وراح يسكب للبحارة نخب رحيل السندباد وأيامه، يعاونه ثنائي المتاعب تنتن وتنتون ..

ورفع أصلان عقيرته للسماء وهو يلوح بقدحه وصوته يهدر في انتشاء :

- المزيد من شراب بربور البحر للبحارة الشجعان ..

الكل يرشف شرابه في انتشاء..

لكن بعض الوجوه كانت متجمدة خالية من أي تعبير أو هو تعبير عن الصدمة مما حدث .. رباه لقد رمينا السندباد في الماء..

حقاً فعلنا !..

وألقى أحدهم قدحه ورفع رأسه ليشق صوته عنان السماء:

- لقد قتلنا السندباد يا حمقى ..

وكانت تلك هي بداية المأساة الحقيقية ..

وبداية الفوضى ..

صاح أصلان :

- مازال بيننا عملاء أنجاس للسندباد وعهده البائد ..

ثم جاب ببصره في وجوه البحارة المؤيدين مردفاً :

- وحان وقت تطهير الخاتون من نجسهم ..

اشتعلت وجوه المؤيدين بالمقت واستداروا ناحية البحار الذي أنكر قلبه ما حدث ليفتكوا به لكنه لم يكن وحده ..

لقد انقسمت الخاتون إلى فريقين وبات من الواضح للعيان أن ثمة مذبحة مريعة ستجري الأن و ستجري معها دماء البحارة أنهارا..

مذبحة تشرف عليها جمجمة ذهبية ماكرة...

وجذب الطاهي البدين تنتن وتنتون وهو يصرخ :

- حان وقت الفرار ..

وطارت بلطة من اليمين لليسار، وقذف أحد المعارضين بقدحه في وجه أحد المؤيدين فانحنى الأخير ليرتطم القدح بصاري المركب.. فضلان ونعمان يصولان ويجولان وسيوفهما تلمع تحت أشعة الشمس ..رشدان يعتلي ظهر أحد المؤيدين ويضم قبضتيه ليهوي بهما على عنقه ..نعمان يعترض طريق أصلان وهو يلوح له بمدية حادة قائلاً في جشع :

- أين نصيبنا من الجمجمة ..
- خذ ..

وارتطمت الجمجمة الذهبية بوجه نعمان فصرخ وتمرغ في الأرض ..وحينما حاول أن يعتدل دهسته قدم الطاهي الغليظة وهو يفر حاملاً تنتن وتنتون من ذلك الجحيم ..

حسان يلوح بسيفه مؤمناً ظهر أصلان الذي انحنى متناولا الجمجمة من جديد واعتدل ليرمق البحارة المتعاركين بنظرة قاسية .. صراخ ..عويل ..دماء ..

وفي تؤدة استدار متجهاً ناحية مقدمة الخاتون غير عابئ بما تخلف وراءه من خراب ..

وعند مقدمة المركب رفع الجمجمة الذهبية بكلتا كفيه إلى السماء وتألقت عينيه ببريق عجيب وهو يصيح :

- لقد مهدت لكم يا إخوة الجمجمة.. واليوم تهراق روح الخاتون بأيدي بحارتها، وهاهم يصطرخون فيها كالنساء.

وأغمض عينيه مردفاً في نشوة :

- لقد آن أوانكم يا أبناء الشيطان البطل ..

***

7- جمجمة لا أجد لها عبارة مناسبة!

هناك من يعبث بالكوة .. يحاول فتحها بصعوبة ..إذن هو على الأرجح ليس منهم ..

وتعلقت أعين حميد والشهاب بالقادم الجديد و..

- تنتن وتنتون ..!!

هتف حميد والشهاب في نفس واحد وهما يتطلعان لوجهي تنتن وتنتون اللذان أقبلا عليهما بعد أن هبطا من الكوة وأنفاسهما تتلاحق ونظراتهم تبض ذعراً .. سبع البحار رفع طرفه إليهما في إنهاك دون تعليق ..

على حين تأمل تنتن القيود الحديدية التي تقيد حميد والشهاب وسبع البحار ثم رفع طرفه للكوة وصاح :

- نحن بحاجة إليك ههنا أيها البدين ..

وسرعان ما انبثق جذع الطاهي البدين من الكوة وعلى وجهه أعتى علامات الألم كأن هناك من يعصره عصرا.. كان يحاول تمرير كتل الشحم واللحم عبر الكوة ..أخيراً تكوم على أرض القاع وهو يلهث وقد تدلى لسانه خارج فمه.. وإلى جواره سقط قدوم ضخم كان يحمله معه ..

- أسرع أيها البدين ..هل هكذا تهبط كل يوم للقاع ؟!

وتعاون تنتن وتنتون على جذب الطاهي ليعتدل وهو يتأمل الموجودات من حوله كأنما استفاق من حلم غريب ..ثم اعتدل ممسكاً القدوم وتحاملً لينهض قائلاً :

- لما العجلة يا شباب ؟..

واتجه ناحية الشهاب الذي نظر للقدوم الذي يحمله في رعب وهو يتسائل :

- كيف فررتم من قبضة الثوار ؟..

رفع الطاهي القدوم عالياً واتسعت عيناه بلا داعي وهو يجيب :

ـ لقد دب الخلاف بينهم وانتهزنا نحن هذه الفرصة و.. هوب ..

وأهوى بالقدوم على القيود ..على موضع بعينه فتناثر الشرر .. وصرخ الشهاب في جزع :

ـ احترس يا أبله .. ستهشم عظامي الواهنة ..

- صبراً يا سيد .. هوب ..

ضربة أخرى تهوي فيتحطم قيد الشهاب أخيراً.. تكوم على الأرض وهو يئن ممسكاً ساقيه :

- لقد تيبست قدماي من تلك الوقفة الإجبارية ..

ضربتين سريعتين حررتا حميد الذي صاح في انفعال وهو يحرك ذراعيه في سعادة :

- كنت أعلم أن لنا أعوان بالخارج ..لقد نسينا أمركم تماماً..

ثم التفت إليهم وعقد حاجبيه متسائلاً :

- ماذا فعلوا بالسندباد ؟..

كان الطاهي يهوى على قيود سبع البحار لكنها كانت أغلظ من سابقيها على حين هتف تنتون :

ـ الأغبياء ألقوا السندباد في البحر..

أرسل حميد ضحكة مجلجلة قبل أن يتنهد قائلاً :

- الأغبياء أرادوا قتل السمكة فألقوها في الماء ..لعله مازال يدور السبع دورات حول الخاتون ينتظر أن يلتقطه أحدهم..

هنا تراجع الطاهي ليضرب ضربته الأخيرة على قيود سبع البحار

حينما انتفض سبع البحار وهو يهتف في لهفة :

- إذن سيدي بخير .. مرحى ..

وأمام العيون المتسعة لان القيد الحديدي وانساب من حول عضلات سبع البحار الذي بدا كعملاق ينهض من سبات عميق

نظر له الشهاب في ذهول قائلاً :

- كنت تستطيع أن تفعل هذا منذ البداية يا أبله؟!

أطرق سبع إلى الأرض في حياء فأجاب حميد نيابة عنه :

- كان يائساً ..يظن أن السندباد قد انتهى ولم يعد هناك فائدة من الحياة ..

ثم نظر لسبع نظرة صارمة وتقدم إليه مردفاً :

ـ لكن الحياة لا تتوقف على أحد وهناك سفينة كاملة تحتاج إلى تضافر جهودنا لإنقاذها من الفتن التي حاقت بها و..

هنا تعثرت قدمه في شيء ما وتعالى الأنين المحتج ..

ـ تباً ..انصرفوا عني يا أبناء الأبالسة ..

كان هذا هو رشيد الذي دهسته قدم حميد دون أن يدري.. مازال المسكين يحلم بركلات الثوار، ويحاول أن يتقيها بكفيه.. حتى انتبه في النهاية لحقيقة وضعه، فجال بعينين متورمتين في وجوه الموجودين قبل أن يغمغم :

ـ إذن فقد فر الجبناء !!

انحنى حميد ليفحصه قائلاً في أسى :

ـ لأول مرة الطبيب رشيد يحتاج لطبيب ..

- أي ي ي ي ي ....

تأوي رشيد وهو يبعد كف حميد ثم حاول أن يعتدل قائلاً في إنهاك :

- إنها مجرد كدمات ولا توجد كسور والحمد لله ..

- مرحى يا رشيد ..كلنا بخير إذن ..

تحامل الشهاب على كفيه كي ينهض على قدميه المتيبسة قائلاً :

- المهم كيف سنواجه الفوضى أعلى السفينة ..

لوح الطاهي بالقدوم في انتشاء طفولي قائلاً :

- لقد تدبرنا أمرهم ولو صعدنا للسطح فلن نواجه سوى شخيرهم المزعج.. فقد بدأ مفعول المنوم الذي وضعته في شرابهم يعمل.. إنه نفس المنوم الذي صنعه لي الطبيب رشيد يوماً ما لخدمة الجمجمة الشريرة ..

تهلل وجه الشهاب وهو لا يكاد يصدق أن تنتهى المحنة على يد أخر مخلوق يمكن توقعه على سطح الخاتون ..صاح حميد في حبور :

- فلنصعد إذن للسطح ولنتخلص من الجمجمة اللعينة ونلتقط السندباد قبل أن يفيق البحارة ..

قال رشيد في إنهاك وهو يتحسس وجهه المتورم :

ـ لا تقلق بهذا الصدد .. لو لم يفيقوا في خلال يومين يمكننا أن نشعر ساعتها بالقلق !!

وهكذا انطلقت البقية الباقية من بحارة الخاتون عائدين للسطح..

صحيح أن بعضهم متيبس المفاصل، وبعضهم شوهته الكدمات، لكنهم كانوا يمثلون الأمل الأخير بعد الله سبحانه وتعالى في نجاة الخاتون ..

صحيح أن بعضهم مترهل ولا يكف عن اللهاث ..

لكن من يملك ترف الاختيار ؟..

وعلى السطح كان المشهد المتوقع ... عشرات الأجساد المتكومة هنا وهناك والكل يغط في نوم عميق .. ومن حولهم تناثرت الأقداح الفارغة إلى جوار المدى والسيوف والبلاطي والمطارق التي كانوا يستعملونها في قتال بعضهم البعض ..بعض البحارة كان ينام وهو يمسك بتلابيب البعض الأخر .. والبعض فاجئه النوم وهو يخنق زميله الذي نام وأصابعه تحاول فقء عين خانقه ...

كان مشهداً مؤلماً ومزريا .. وتجمد البحارة الناجون أمامه برهة

ثم شق صوت حميد حجاب الصمت :

- ترى مع من كانت الجمجمة ؟..

صاح الطاهي وعينيه تزداد اتساعاً من شدة الأنفعال :

- مع أصلان ..كان يتجه بها وسط الفوضى ناحية المقدمة ..

زمجر سبع البحار وهو يتجه ناحية الحافة قائلاً :

ـ تباً للجمجمة سأنتشل سيدي أولاً ..

تحرك حميد في خفة وتخطى بعض الأجساد المتكومة في طريقه لمقدمة الخاتون ثم توقف وانحنى يفحص جسد أصلان

الذي انكفئ على وجهه وهو يشخر بصوت مكتوم ..

ثم اعتدل بوجه ممتقع ليعلن للرفاق الخبر السعيد :

- تباً ..لا أثر للجمجمة مع أصلان ..
- لأني تخلصت منها قبلكم ..

واستدار الجميع ناحية مصدر الصوت الذي تردد من ورائهم

وانطلقت الصيحات المرحبة :

- سندباد ..هوووررراااااه ...

***

كي نفهم هذا علينا أن نعود قليلاً للوراء ..

***

- سندباد هل ستترك لهم الخاتون ؟..

ضربت الماء بكفي وأنا أتأمل ذلك السمج الذي قطع علي لحظة الاحتضار في الأعماق ..كان يرتدي ثياب تشبه ثيابي و له لحية كلحيتي ..وينظر إلى بنفس الطريقة التي أنظر بها لنفسي في المرآة و .. أي دعابة سمجة هذه ؟.. قلت له من بين أسناني :

- مرحى إنك تشبهني بشدة يا صاح ..

ثم حاولت أن أمنع نفسي من البكاء مردفاً :

- رباه ..لقد بدأت أهذي هذيان الموت ..
- هل ستترك الخاتون يا سندباد ؟..

نظرت له في غل صائحاً :

- تباً لك .. إنني أحتضر يا أبله .. ألا تفهم ؟..
- تباً لك أنت .. خذلت الخاتون وخذلت بحارتك ..
- بحارتي !! بحارتي من يا أبله ؟..من ألقاني ههنا إذن لألقى سحنتك الكئيبة ؟..
- أنت تعرف أنهم يتصرفون بوحي شيطاني.. ولا يتصرفون بطبيعتهم .. هناك من بث فيهم بذرة الشر ..كما أنك لن تموت لمجرد أنهم ألقوك في الماء ..لو أرادوا قتلك لربطوا على صدرك حجراً ..ولو تركت نفسك لتموت فأنت قاتلها..
- حتى لو عدت للسطح ماذا عساي أن أقدم لهم ؟..
- الأمل ..
- الأمل في أن يعيدوا إلقائي في الماء من جديد ..

هنا تبدلت ملامح شبيهي بغتة ..صار أكبر سناً وملامحه أكثر صرامة وصوته أكثر غلظة :

- سندباد لا تجعلني ألهب ظهرك بالسياط ..

ارتعدت فرائصي وخرج صوتي مضطرباً :

- أبي خير الدين ..!!
- نعم أنا أبوك الذي حلم باليوم الذي تصير فيه أسطورة يتحاكى بها الناس لكنك اليوم ستتحول إلى أضحوكة جماعة الجمجمة الشقية ..

فكرت قليلاً في كلامه ثم قلت :

- هل تظن ذلك ؟..

هنا هدر صوته المرعب في الأعماق (لا تسألوني كيف):

- تحرك يا ولد وانقذ سفينتك ..وإلا ...

ضربت الماء بذراعي وحركت قدمي وأنا أغمغم من بين أسناني:

- سأ.. سأفعل.. فقط صوتك سيوقظ السمك ..

بالفعل عدت للسطح وسبحت حتى اقتربت مرة أخرى من الخاتون الغريب أنني لم ألمح أي تحركات على ظهر الخاتون ..

أين ذهب الثوار الأحرار.. طبعاً فهمت فيما بعد .. أخرجت من كم قميصي المدية الحادة التي أخفيها هنالك لمثل تلك المواقف وانتزعت الخنجر المزركش من رقبة حذائي الجلدي وبدأت رحلة التسلق لجسم الخاتون.. كنت أتألم كلما غرست مديتي أو خنجري في جسم الخاتون وأتمتم لنفسي متصبراً: أن كل هذا من أجل الخاتون وقليل من الطلاء سيعيد لها رونقها القديم فقط فلتنتهي تلك المغامرة المرهقة ..

أخيراً السطح.. جلست استرد أنفاسي إلى جوار الأجساد المكومة هنا وهناك.. لقد نام الحمقى لسبب ما لكنها نومة في وقتها...

كنت الأن أنظر بثبات إلى ذلك الجسد المكوم جوار الحافة وإلى الشيء الذي أفلتته يداه وهو يغط في نوم عميق فتدحرج واستقر عند قدمي .. إلى الجمجمة الشقية ...ولم استمتع بشيء في تلك المغامرة يا رفاق بقدر استمتاعي بإلقاء تلك اللعينة في الماء ..

قال حميد باسماً :

- عود أحمد يا سندباد ..

وصاح الشهاب وهو يسعل :

ـ السندباد كالهر بسبعة أرواح.

وتعلق بي تنتن وتنتون هاتفين في سعادة غامرة :

ـ لقد سحقنا القراصنة وعملائهم الأوغاد ..

وابتسم الطاهي البدين ابتسامته البلهاء قائلاً :

- لقد سعدت بالمشاركة في مغامرة من مغامراتك يا ريس سندباد بعيداً عن المطبخ ..هي هي ..

وضمد رشيد وجهه بخرقة مبللة وهو يقول :

- وأنا وجهي تورم من السعادة كما ترى يا سندباد ..

ابتسمت مجاملاً لهم قبل أن التفت إلى سبع البحار قائلاً :

- وأنت يا سبع البحار ..ألن تقول شيئاً ؟..

كان سبع البحار جامداً في مكانه كصخرة وعيناه ثابتتان على نقطة ما خارج السفينة .. ثم قرر أخيراً أن يتكلم بعينان لا تطرفان :

- هناك سفينة تقترب يا ريس سندباد ..

واستدرنا كالملسوعين إلى حيث يشير سبع البحار الذي يصمم في كل مرة على إتحافنا بالمصائب .. وأسقط في أيدينا ..

لقد عاد القراصنة المزعجون ..وفي أحلك الأوقات ..

وبدأ السؤال الملح يدوي في رؤوسنا ..

كيف سنواجه القراصنة بسفينة نام عنها بحارتها ؟..

***

كنا نجدف كالمجانين ..

ثماني أشخاص يحاولون تحريك السفينة الخاتون قبل أن تدركها سفينة القراصنة والنتيجة أن الخاتون كانت تتحرك كأنها سلحفاة ميته ..!!وهذا يعني أن سفينة القراصنة ستدركنا لا محالة وقد صارت متفوقة علينا من حيث السرعة ..وعضضت شفتي حسرة على حالنا متذكراً الأيام الخوالي .. يوم كانت الخاتون تمخر عباب البحر ولا تستطيع أعتى السفن أن تباريها في الخفة والسرعة ..

اليوم ستلحق بها سفينة القراصنة التي كانت مثار لسخريتنا فيما مضى .. يا للعار ..

- لا فائدة يا شباب ..

قلتها وأنا أتخلى عن المجداف محنقاً ..فتعلقت بي سبع أزواج من العيون اليائسة المتحيرة ..جذبت نفس عميق ..ثم بدأت أملي عليهم أوامري بلهجة لا تحتمل النقاش :

ـ أنا وحميد وسبع البحار سنشاغل القراصنة ورشيد سيحاول إيقاظ البحارة بأي وسيلة ومعه الشهاب والطاهي ..تنتن وتنتون أحضرا جرابي من القمرة ..

قلتها ولم أنتظر أي تعليقات ..

طبعاً لا شك أن مواجهة القراصنة بثلاثة بحارة أمر يتجاوز حتى حدود الجنون .. حتى لو كان أحدهم هو السندباد ..قال لي حميد ونحن نتجه للسطح :

- هل لديك خطة يا سندباد تجعلنا نموت بسرعة ؟..

قلت له وهواء البحر يلفح وجوهنا :

- لنلقي نظرة أولاً على عدونا وبعدها نحدد ..

وبالفعل كانت هي نظرة واحدة ..لكنها كانت كفيلة ببث الرهبة والذعر في قلوبنا ..

وتبادلت وحميد النظرات الممتقعة وردد الموج هتافنا المبحوح :

- يا للهول ..

فما وجدناه يطاردنا يا سادة لم يكن مجرد سفينة قراصنة .. ما وجدناه كان شيئاً مذهلاً ومبهراً و..

ومرعباً ..

***

8 - هرم الجماجم

كنت بحاجة إلى رؤية أقرب ..
تناولت المنظار المقرب من جرابي الذي أحضره لي تنتن وتنتون ورفعته إلى عيني وصوبته ناحية سفينة الجمجمة؛ لأرى عن قرب ما أثار الرعب والرهبة في نفوسنا..
فوق سطح السفينة كان هناك هرم ضخم.. كنت الأن ألقى عليه نظرة فاحصة ..
إنه هرماً من الجماجم البشرية التعسة.. وليست الذهبية!
لهذا تتحرك السفينة ببطء وحرص..
وحول الهرم كان حشد من الرجال يرتدون برانس سوداء تخفي ملامحهم، ويحنون رؤوسهم في خشوع غريب..
ولم أنس ملاحظة مهمة ..أن الهرم غير مكتمل القمة..
لكن يبدو أنهم مقبلين على إتمامه.. وإلا فما دورنا نحن في هذه القصة..
وهكذا ناولت حميد المنظار لأريه ما رأيت .. والتفت لبقية البحارة ممتقعاً ..حسناً ..لقد اتضح كل شيء يا رجال ..لا ترتعد أيها الشهاب ولا تضطرب يا رشيد ..ولا تولول أيها الطاهي البدين ..لا تندفع يا سبع البحار وكفا عن الصراخ يا تنتن ويا تنتون ..
خفض حميد المنظار عن عينه وبأنفاس مبهورة همس :
- سندباد هل فكرت فيما أفكر فيه ؟..

أومأت له برأسي قائلاً :
ـ لن يتوقفوا إلا عند اكتمال الهرم.. إننا نواجه ـ فيما يبدو ـ طقس من أبشع الطقوس الوثنية ..
ـ وهل سننتظر دورنا ؟..
قالها وهو يناولني المنظار لأرى ذلك الحشد من الرجال أسفل الهيكل يرتدون الفراء وعلى رؤوسهم خوذات تخرج من جانبيها قرون .. كانوا يحركون شفاهم بكلمات رتيبة كأنهم يؤدون صلاة ما.. إنهم ينتظرون لحظة التقارب القصوى بيننا وبينهم..
ورأيت أضخمهم يصعد إلى حيث الهيكل ويخلع خوذته منحنياً على أحدى ركبتيه كأنما يطلب البركة من كهان الهيكل.. فيقترب منه أحدهم وبتلقائية يصفعه على قفاه !!
الغريب أنه اعتدل متهللاً ولوح بسيفه صارخاً في سعادة بعبارة ما، فهاج الرجال في الأسفل وسمعنا هتافهم مرددين :

- أووووودييييييين...

ثم عاد يهبط بين رجاله بعد أن باركته كهنة الهيكل وباركت هجومه علينا ..
خفضت المنظار ونظرت للبقية الباقية من رجالي معلناً لهم في صرامة أننا سنواجه هجوم القراصنة برجولة..
قال حميد ممتقعاً :

- ألا توجد وسيلة للتفاوض معهم ؟..

وقال رشيد :

- أنا طبيب ولست محارباً ..

وارتجفت لحية الشهاب وهو يردد :

ـ لم تعد عظام جمجمتي تتحمل عبث القراصنة هذا ..

تجاهلت عباراتهم المتحمسة قائلاً :

- سيلقون بخطافهم ليثبتونا إليهم من ثم يبدأون في جذبنا حتى يتسنى لهم وضع الألواح الخشبية بين المركبين كجسر يعبرون به إلينا ..

قال الشهاب وهو يداعب لحيته في وجل :

- هذا هو ديدن القراصنة أي بني ..

شبكت مابين أصابعي قائلاً :

ـ حينما يبدأون بجذبنا .. سنعمل على مساعدتهم بالتجديف وبكل قوتنا باتجاههم ..

ارتفع حاجبي رشيد قائلاً :

- نتجه إليهم بدلاً من الفرار منهم ..إنها خطة عبقرية ولا شك!!..

قلت له في حدة :

ـ لا تنس أنك طبيب ولست بحاراً..

هنا قال حميد في بطء وهو ينظر إلى مضيقاً عينيه :

- تريد أن تصطدم بهم إذن ..

غمزت له بعيني قائلاً :

ـ لا تنسوا أن تتشبثوا جيداً ..

وانطلق الرجال ليبدأو بالتجديف وانطلقت أنا ناحية الدفة لتوجيهها ناحية سفينة القراصنة ..مشهد اقتراب القراصنة وأنا بمفردي على السطح وسط البحارة النائمون كان كفيل بتحطيم أعصاب أعتى الرجال لكنني كنت مشغول بأمر واحد..

ترى هل ستنجح خطتي أم ؟

هنا لمحت الخطاف يهوى متشبثاً بحافة الخاتون.. كنا في مواقف أخرى نقطع الحبل المتصل بالخطاف ..كم تتبدل الأمور..

وبدأ القراصنة يجذبون الحبل المتصل بالخطاف ..

ورجالي يجدفون بكل ما أوتوا من قوة ..

ومع جذب القراصنة لنا من جانب و تجديفنا نحن من الجانب الأخر كانت الخاتون تتجه لسفينة القراصنة بسرعة كافية ليكون الصدام مروعاً ..

وصحت في غل من بين أسناني وقد ماتت يدي على الدفة :

ـ هيا أيها الشياطين قربونا منكم أكثر..

وأخذت سفينة القراصنة تقترب منا بهرمها المهيب ..

وتقترب ..

وتقترب ...

والحمقى لم يفهموا إلا متأخراً ..

الرهبان تركوا تبتلهم حول الهيكل الهرمي ويمموا وجههم ناحية الكارثة المقبلة ..

زعيم القراصنة الضخم توقف عن الصخب ومناجاة إلهه أودين ثم حرك شفتيه بكلمات غير مسموعة لعلها سباب أو لعان..
وقفزت أنا متعلقاً بالصاري المجاور للدفة صارخاً :

- تحياتي لهرمكم المقدس..

ثم كان الصدام .....
وارتجت الخاتون رجة عنيفة جعلت رأسي يرتطم بالصاري وشعرت بالسائل الساخن يتسرب من تحت عمامتي ويسيل على وجهي ..
ثم سمعت صوت الهدير المروع فرفعت طرفي لأرى خطتي قد أثمرت...
لقد بدأ هرم الجماجم يتهاوى من أثر الصدمة..
وفوق رؤوس الجميع ..
صراخ ..عويل ..ضجيج ..ذعر ..أطنان من الجماجم البشرية تنهار وتدفن تحتها العشرات والعشرات.. لقد انتقمت الجماجم لأصحابها من القراصنة السفاكين ..
وردد الموج صدى ضحكاتي المنتصرة ..ولوحت بقبضتي صائحاً في انتصار:

- الجماجم تسحق جماعة الجماجم ..

لقد نجحت خطتي ..حمداً لله .. وبعداً لأودين ..
هنا ارتطم جسدي بجسد ثور طائر وشعرت بعظامي تنسحق والثور الطائر يجثم فوق صدري ..

نظرت بعينين زائغتين إلى الكابوس الجاثم فوق صدري ..
أين رأيت هذه الخلقة من قبل ؟..حينما كان يتلقى البركة على قفاه من أحد الكهنة الهالكين ..
مرحى.. لقد نجا زعيم القراصنة من طوفان الجماجم وجاء ليحيلني إلى عجين ..

***

كان يلهث وهو لا يكف عن الهمس بكلام غير مفهوم لكن رائحة أنفاسه الكريهة أدارت رأسي ..

- أووووودييييين ...

ولمحت بريق خنجر في يده يستعد ليهوى على عنقي ..

- ألم تفهم بعد ؟..

قلتها من بين أسناني قبل أن أدفع ركبتي بين ساقيه مردفاً :
ـ لقد تخلى عنك إلهك الوثني ..
أطلق العملاق شهقة عارمة وسرعان ما تهاوى وهو يطلق خوار عجيب ..
وتحررت من ثقله الكابوسي ووثبت قائماً وانا أهتف :

- أسمح لي بأن أباركك بطريقتي الخاصة ..

ووثبت لأركله في مؤخرته ركلة عاتية ..لكن من قال أن الركلات تفلح مع الثيران ..

وسرعان ما كنت أتواثب على ساق واحدة ممسكاً بساقي التي ركلته بها ..

هنا لمحت ثلة من القراصنة يثبون إلى الخاتون وهم يلوحون بسيوفهم ومديهم والشرر يتطاير من عيونهم ..كانوا حوالي عشرة.. لم يكن زعيمهم هو الناجي الوحيد إذن ..

في نفس الوقت اعتدل زعيم القراصنة قائماً وهو يبتسم في مقت .. لسان حاله يقول ..لقد صرت محاصراً بين رجالي ..

هنا لمحت حميد وسبع البحار يثبون على الرجال العشرة من الخلف..

- أخيراً يا حمقى ..

وبدأ الاشتباك ..

كورت جسدي النحيل ودحرجته من بين ساقي الزعيم الذي هوى بخنجره على الفراغ ..وهوى سيف أحد رجاله على يده بالخطأ .. ووثبت من خلفه قائماً وأنا أسمع صوت صرخته المروعة ..

ودرت على عقبي لأراه يرفع كفه المتدلية عالياً ..

هنا رأيت عجيبة ..الرجل الذي ضربه يمد إليه سيفه وهو يحني رأسه في خضوع فتناول الزعيم السيف بيسراه السليمة وهوى بها على عنق الرجل ..

محاكمة سريعة جرت وانتهت بحكم الإعدام ..لقد أراحنا بغبائه من واحد. لكنه استدار إلى ممسكاً بالسيف الذي يقطر دماً وقد تجاهل يده الأخرى المتدلية وقال شيئاً وهو يتقدم وعينه تقدح الشرر ..

كان حميد يهوى بسيفه على عاتق أحد القراصنة على حين حمل سبع البحار أحدهم والقاه فوق ثلاثة فأطاح بهم .. ووثب الأربعة الباقون على سبع البحار لكن حميد عرقب أحدهم بسيفه فسقط وهو يتلوى .. وعاد الأربعة الذين أطاح بهم سبع البحار للهجوم مرة أخرى ..

هنا برز رشيد والطاهي البدين وانضما للمعركة ..

وليتهم لم يفعلوا ..

كان رشيد يحمل مطرقة ويلبس منظاره غريب الشكل ظناً منه أنه سيثير الرعب في قلوب القراصنة ..والطاهي كان يرتدي خوذة ذات قرنين سقطت من أحد القراصنة وهو يمسك بتلابيب رشيد محتمياً به ..لكن رشيد حينما رفع المطرقة وهوى بها

أصاب الطاهي المسكين الواقف إلى جواره ..وتكوم الطاهي وهو يعوى..

على حين تلفت رشيد يميناً وشمالاً باحثاً عن الطاهي ثم هز كتفيه ونفشً صدره قائلاً :

- هرب الجبان ..

وكنت أنا أشاغل الزعيم مبتور اليد بخنجري الذي استللته من رقبة حذائي ..كان الوغد قوياً وضرباته لو قدر لها وهوت على هامتي لفلقتها ..لكنني كنت أعتمد على خفة وزني وسرعة حركتي وعيني تبحث عن ثغرة ..فقط ثغرة ..و ...

كان سبع البحار يقاتل بسيفين بعد أن جندل صاحبيهما وحميد

يثب ليركل أحدهم ويغمد سيفه في قلب ثان ..وجاء الشهاب ملوحاً ببلطة في يده فبرز له أحد القراصنة فرفع البلطة عالياً
مزمعاً تمزيق مهاجمه .. و ..
هنا انتابته نوبة سعال مفاجئة ..وكاد القرصان يطير عنقه لكنه فقد رأسه إثر ضربة عاجلة من سيف سبع البحار فهز سيفه مرتين في الهواء وهو بدون رأس ثم تكوم جوار الشهاب الذي نظر إليه في دهشة صائحاً :
ـ سعلة واحدة أطارت عنقه .. ماذا لو عطست إذن ؟..
وأخيراً لاحت لي ثغرة .. كان الزعيم يستعد ليهوي بضربة جديدة من سيفه فانكشف لي إبطه ..
وسرعان ما انغرس خنجري حتى مقبضه تحت إبط زعيم القراصنة الأوغاد ..
ويدي الأخرى كانت تقبض على ساعده كي لا يهوى بالسيف ..
ورغم إصابتي له كنت أشعر بمدى قوة ساعده وأنا أحاول تثبيته ..
متى تخور قوى ذلك الثور؟.. أخيراً حركت خنجري تحت إبطه لأسفل فشق ضلوعه ..فأطلق صرخة عاتية ثم هوى بيده المبتورة على وجهي فشعرت بالأرض تميد .. وتركت خنجري ناشباً بين أضلعه وترنحت لحظة جهة الحافة ثم بركت على قدمي وانا ألعنهً.
ولمحته يقترب منى بخطوات متثاقلة وحاول أن يرفع سيفه ليضرب ضربة أخيرة لكن السيف أفلت من يده ..

وألقى نظرة شاملة على أرض المعركة فرأى رجاله العشرة مجدلين تحت قدمي حميد وسبع البحار فرفع رأسه للسماء جزعاً وصرخ صرخة أخيرة:

- أووووودييييييين ...

ثم برك على قدميه ..وقال شيئاً ما ـ لعله يلعن سوء طالعه أو يلعن أودين نفسه ـ قبل أن ينكفئ على وجهه ميتا..

وشعرت بساعد سبع البحار القوى يعينني على النهوض وسمعت هتاف حميد يعلوه البشر :

- سندباد لقد فعلناها حقاً ..

كان الدوار قد بدأ يتلاشى رويداً رويداً ..

ولمحت السعادة تعلو الوجوه ..لقد هزمنا الجمجمة بحول الله وقوته

كنا بحاجة إلى أن نبتعد كثيراً قبل أن يتسلل إلينا المزيد من القراصنة الناجين ..

هنا سمعنا أصوات تثاؤب جماعية ..

لقد أفاق البحارة من أثر المنوم الذي شربوه .. وبدأ بعضهم يتسائل في براءة عما حدث ..

لا وقت الأن للتساؤلات يا حمقى ..

فلنبتعد أولاً عن هذا الجحيم..

***

خاتمة

انتهت قصة جماعة الجمجمة ..
نعم هم جماعة ولا شك.. هذا الطقس المشؤوم الذي كانوا يؤدون والهرم المصنوع من الجماجم والكهنة.. كله يؤكد على أنهم كانوا يمارسون شيئاً غامضاً للغاية.. شريرً للغاية.. أبعد ما يكون عن كونهم مجرد قراصنة... الشكل الهرمي من الأشكال السحرية المعروفة عند الوثنيين وهو يرمز لضوء الشمس الذي يهبط من السماء للأرض ..
ترى ماذا كان سيحدث لو اكتمل الهرم ؟
وهل هلكوا جميعهم أم بقى منهم من سيكمل الطقس في يوم من الأيام؟ ويكمل بناء الهرم ..
أسئلة عديدة خلفتها لي تلك المغامرة التي انتهيت لتوي من تسجيلها في سجلاتي البحرية .. ربما حصلنا على أجوبة يوماً ما وربما لن نعرف أبداً.
أما الأن.. فأنا بحاجة إلى مغامرة جديدة.. كم اشتقت للمسوخ وطائر الرخ السمج والجزر التي ليست كذلك..
كنت جالساً في قمرتي أدون سجلاتي على ضوء شمعة جوار كوة مستديرة تطل على البحر.. هل اضطربت المياه الساكنة ؟
خيل لي أنها اضطربت.. على العموم كنت رائق المزاج حقاً ومستعد لأى مفاجأة من مفاجآت البحر الغير عادية ..

دعك من كوني رأيت كل شيء ولم يعد هناك ما يثير ذعري..
أغلقت السجلات ونحيتها جانباً ونهضت حاملاً الشمعة معي إلى الكوة التي تطل على البحر..
هنا قف شعر رأسي وتجمدت الدماء في عروقي ..
من الأحمق الذي قال أنني رأيت كل شيء ولم يعد هناك ما يثير ذعري؟..
إذن خبروني بربكم ما كنه هذا الشيء الذي يخرج لي رأسه الأن من الماء ..
ربما أعرف عما قريب أما أنتم فحان الوقت كي تستريحوا قليلاً من ثرثرة السندباد ..

***

تمت بحمد الله